# فِئرانُ هذا الحيّ

## وقصص أخرى

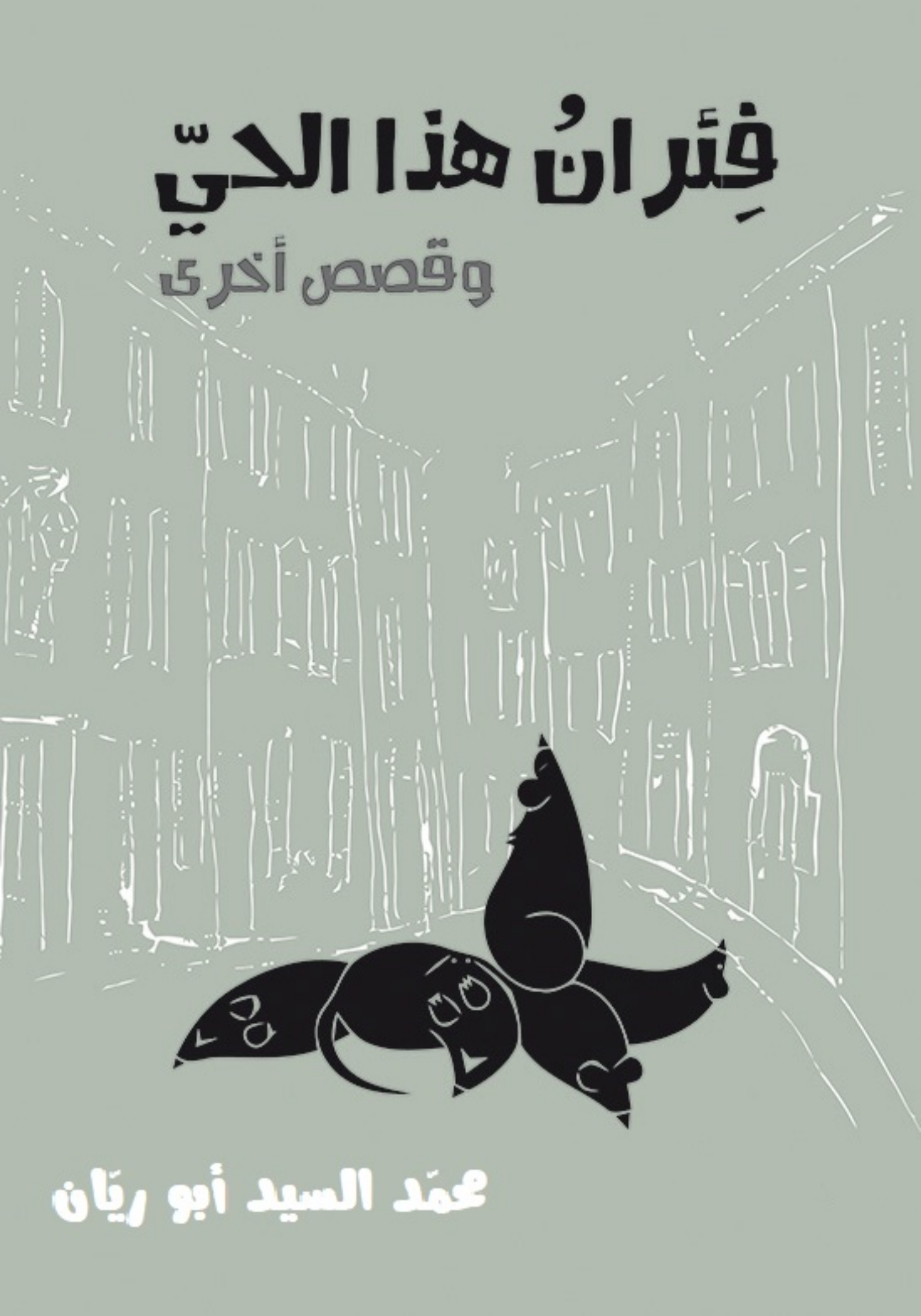

محمّد السيد أبو ريّان

# فِئرانُ هذا الحيّ

(قصص)

محمّد السيّد أبو ريّان

**الكتاب: فئران هذا الحيّ**

**المؤلف: محمد السيد أبو ريّان**

**الغلاف: محمّد مَنسي**

**الإصدار: الثاني**

**رقم الإيداع: 2823 / 2014**

عِرفانٌ لِما كان؛

لأجلِ ما بَقِيَ.

# نقطتان وقوس

نقطتان وقوس؛

عينان، وخطٌّ مشدودٌ على منحنى الابتسامة.

هكذا يبدأ صباحه الرقمي، بتوقيتٍ يتأخّر عن توقيت الرحيل بضعَ ابتسامات.

الأخبار، درجات الحرارة، أسعار الصرف والذهب والفضة، جديد الألعاب والأفلام والنكات... كل هذا يأتي لاحقًا، الأهم هي.

في بياض الشريط الأزرق يكتُبُ اسمَها.. ويضغطُ كابِسَ الإدخال.. تبيضُّ الصفحة فجأة، وفي الركن العلوي يدور ثعبان التحميل حول نفسه ببطء عدة دورات، تحتبس أنفاسَه، ينتظر، تتسارع الدورات، وتلاحقُها دقات قلبه، وفجأة يُعلِن المتصفّح عن نتيجة البحث..

**- لم يتمّ العثور على الصفحة المطلوبة! لعلّك ضغطتَ على رابطٍ منتهي الصلاحية، أو أسأتَ كتابة العنوان، بعضُ عناوين الويب حساسةٌ لحالة الأحرُف.**

يصدِمُه الفراغ الأبيض الغامر، يبتلعُه، يلقيه في مجاهله المبهَمة، تستيقظ علامات الاستفهامِ النائمة، وتتمطّى علامات التعجّب الهائمة.

الصفحة المطلوبة ستظلّ أبدًا مطلوبة، وأمانيه على خطّ الإرادة مصلوبة! صلاحية الرابط الوحيد انتهت قبل أن تنتهي صلاحية إقامته وسط الصفحات.. ستحينُ نهاية إقامته قبل أن يرغبَ في الرحيل.

لطالما أساء كتّابة العنوان، كانت الأبواب مفتّحةً، والنوافذُ مُصَرّعةً، ولكنه لم يُتقِن سوى طَرقَ الجدران!

بعضُ عناوين الويب لا تنتمي إلى عالمه، أو ربما لا يصحّ أن ينتمي هو إلى عالمها..

يريدُ أن يرحَلَ محتجًّا، ويعلمُ أن لن يجديه الرحيل، فدائمًا ما يعود.

سيكملُ يومَه الرقميّ ريثما ينقضي فارق التوقيت مع الرحيل.

وأرسلَ انفعاله يصيغُ به موقفه من العالم؛ نقطتان وقوس: عينان وخطٌّ مُنزوٍ على منحنى العبوس.

أكتوبر 2011 م

# سيأتي بهم الحنين

واصلَ الصغير قرقعةَ العظام، واحدةً في اثنتين في جمجمة..

- كم عمرك الآن يا أبي؟

- ثمانية وعشرون.

- وكم عمري أنا؟

- شهرٌ واحد.

- وعندما أتينا إلى هنا؟

- توقفت أعمارنا بالمجيء إلى هنا.

ونظر لأعلى متأملاً، حيث فوقٌ بلا سماء، ولا غيوم، ولا نجوم، ولا قمر.

- أين أمي؟

- بقيت هناك مع من بقي.

- ألن تأتي؟! وددتُ لو أعرفها.. أريد أن أراها.

أشاح الأب بوجهه، وهو يغمغم..

- رتّب عظامك جيدًا يا بني ولا تُكثِر العبث.

وتابع شروده في شواهد متراكبة، بعضها من فوق بعض، تعلو طبقاتها فوقًا، وتنبسط يمينًا وشمالاً، والصغيرُ يرتّب عظامه. رفع جمجمته أمامه متأملاً هو الآخر..

**- كيف يبدو وجهي يا أبي؟**

**- أرأيت وجه أبيك؟**

ابتسم الصغير..

**- نعم رأيته. أراه الآن.**

**- أنت صورةٌ طفوليةٌ نقيّةٌ من وجه أبيك.**

تأمّل الصبيُّ جمجمته محاولاً أن يفهم.

جمجمة أبيه أمامه، لا تبدو شبيهةً بجمجمته، وأبوه واقفٌ أمامه كأشمخ ما يكون، ابتسم لفكرة أنه يشبهه.

**- هل سنزورهم قريباً يا أبي؟**

**- أحلامهم لم تعُد لنا !**

يضبط الصغير عظام قفصه الصدري بعناية، ثم يتراجع ليعاينها..

**- هل تخلّوا عنّـا؟**

**- سنظل على عهدنا لهم.**

يضبط الصغير توصيل جمجمته الصغيرة ببقية الهيكل.

**- متى سنراهم إذن ؟!**

**- سيأتي بهم الحنين.**

وقف الصغير ليبدو تشوّهه كأروع ما يكون.. خطا خطوة عابرًا هيكله العظمي..

**- خذني في حضنك يا أبي.**

التفت الأب نحوه مبتسمًا، وخطا نحوه مومئًا له بالإقبال..

وامتزج الروحان في عناقٍ هادئٍ.

وعلى الأرض تكوّمت الظلال في وداعة.

أغسطس 2011م

# الرّابض في الأعماق

... ... ونهض من جلسته وهو ينفض جلبابه بذات الطريقة التي اعتدت رؤيته يفعلها.. مؤكدًا:

**- و اما تشوف مصطفى ابقا سلملي عليه.**

**- مصطفى عمّي ؟!**

**- لأ.. مصطفى السيد.**

و ارتفع صاعدا من حيث أتى.

الآن أعرف تفسير هذا الحلم. بظنّي أن كتاب "تعطير الأنام في تفسير الأحلام" لا يغادر حلما أو كابوسا إلا فسّره. حسنًا، هاهو الفهرس.

من رأى أنه...

ومن رأى...

لا ليس هنا.. ولا هنا..

آهٍ يا عيناي المنتفختين.. هاااااااخ..

من رأى... من رأى...

من رأى مصطفى السيد.. من رأى مصطفى السيد.. مصطفى السيد؟!

أي (مصطفى سيد) هذا الذي سأجده في تفسير الأحلام؟!

تبّا.. أربع عشرة ساعة يوميا من النوم ولا يكفيني! ولا يصفو ذهني أبدا!

لا أدري أي خبالٍ هذا الذي أمارسه؟ أبحث في الفهرس! وعمّن؟! عن مصطفى السيد!! منذ متى والكتاب يضم أسماء شخوص.. اللهم إلا الأنبياء والملائكة!!

نعم ؛ هذا هو ما أبحث عنه..

(فصل في رؤيا الأموات وأحوالهم ؛ وما يكون منهم من سائر أفعال الأحياء).

الصفحة همِهمية ثلاثة وأربعون.. نعم..

من رأى ميّتا...

ومن رأى أنه مشي مع ميّت...

ومن رأى أن ميّتا حمّله سلاما إلى ...

ومن رأى نفسه ميّتا...

لحظة. من رأى أن ميّتا حمّله سلاما إلى آخر فهو مؤذنٌ بقرب وفاة المسلّم عليه. وسُئل جعفر الصادق... .

مؤذِنٌ بوفاة المسلّم عليه!

كل هذا يعني أن عمّي الأكبر- رحمه الله- يخبرني أن هناك من يدعى "مصطفى السيد" وأن ساعته قد قربت!

هاااواااااخ خ..

رأسي من ثقلها تكاد تسقط من على جسدي، وجسدي النحيل يشكّل ضغطا ثقيلا على ساقيّ الخاويتين، و... هاااا واااااااخ..

أثابر كي أصل للحمّام قبل أن تسقط رأسي مني..

مصطفى السيد أخبرني.. بل عمّي هو من أخبرني عن عم "مصطفى السيد" !

عم "مصطفى السيد" !! ألا يحتمل أن يكون هو؟ كلا كلا. ليس عمّي. عمي الكبير – رحمه الله– قال إنه ليس هو. ثم إن عمي مصطفى اسمه "مصطفى أحمد"، وليس "مصطفى السيد".

أرشّ وجهي ببعض الماء، لتتبخر بعض الأثقال من رأسي..

**(وإما تشوف مصطفى السيد...).**

الله !! فلماذا أتعب نفسي إذاً مادمت سأقابله؟ لأَدَعْ كل شئ لوقته!

أبي !! هذه حركات أبي..

نحنحة وسعال يسبقهما أو يتوسطهما أو يعقبهما بصاق ثخين. هكذا يحيينا تحية الصباح !

**- صباح النور يا بابا.**

نظر إلى بعينين منتفختين من المقت ، محمرتين من كثرة النوم..

**- مالك يا بابا ممتعض كدة ليه؟!**

تجاوزني بخطوات ناعسة.. وقبل أن ألتفت معه فاجأني بتثاؤب سلطانيٍّ مهره بخاتمة خائية وبصقةٍ لا ينقطع عنه مدادها..

**- الواد أوفا..**

**- أوفا مين؟!**

**- أخوك الدُهُلّ..**

**"ماله ؟!"..** الحمد لله أنه لم يسعفه البصاق هذه اللحظة. وإلا لجعل من وجهي النحيل لوحة لا أحبذ وصفها ! فقط اكتفى بنظرته المتلمّظة، ثم صك باب الحمّام في وجهي..

**- صحيه خليه يلحق يخلص ورق البطاقة.**

كيف سيلحق والساعة جاوزت الثالثة عصرا ؟!! منذ انتقلنا لهذا المنزل والنوم حتى العصر عادتنا الراسخة.

**- أوفا.. إصحا..هاااااخ.. قوم.**

وهززت تلك الكتلة المتكورة عسى أن تدبّ فيها الحياة من جديد، ككلّ يوم.

**- أوفا يا أوفا.. يا مصطفى.. يا مصطفى يا سيّـ...**

مصطفى ! أخي !

وأبي !! "السيد" أبي !

**- مصطفى.. مصطفى!**

أتابع هزّي لكتلة اللحم الكبيرة المتكورة بقلق. تترجرج معي.

**- مصطفى!**

ندت عن الكتلة زومة مكتومة، فاستبشرت خيرا..

ومن أسفلها امتدت قدمان تبعهما ساقان بضّتان، و امتد نتوء على سطح تلك الكتلة فأنبت ذراعا، لينزاح الغطاء مع امتداد الذراع لأعلى كاشفا عن الوجه المعجون في بعضه من تأثير النوم..

ومع حفيف شهيق طويل شدّ قلبي معه، ابتسمت له، عبث براحة يده في وجهه المعجون كأنما يعيد تشكيل معالمه.

هذه الحركة مجدية حقا. إنه يعلم ما يفعله. هذا هو. أخي مصطفى.

**- واااعوووواااااخ خ خ .. هااااه.. عاوز ايه؟!**

تأملته وأنا أراجع نفسي بشأن قلقي عليه؛ هل سيشكل موته فارقا؟!

**- قوم.. أبوك بيقولك قوم!**

تنهّد وتمطّى وتثاءب وتعارك مع غطائه أثناء كل ذلك، وأخيرا انتصر على الغطاء فأزاحه بساقه الثقيلة، وأثبته هامدا بجوار الحائط.

أهذا هو "مصطفى السيد" الذي طلب مني عمّي أن أبلّغه السلام؟!

عمي لم يعرف في حياته إلا الكبراء، وأهل الحلّ والعقد في بلدتنا والبلاد المجاورة.

لم يعرف كلّ لحم حمقاء متورمة تتحول عند استيقاظها إلى آدميين. شيء ما يطمئنني أنه ليس المقصود.

**- طلعتوا الرسم الهندسي بتاع البيت؟**

**- رسم هندسي إيه؟ أبوك بيقولك قوم اعمل ورق البطاقة.**

**- بطاقة مين؟ أنا حلفت ميت يمين مغلظين مانا عاملها إلا اما يعملّنا البدروم! هو كلام عيال!!**

أوفا! أوفا يستنكر "هو كلام عيال!".

**- مغلّظين وللا ملظلظين؟ قوم.**

**- بتتريق؟! ماشي. ابقا شوف بقا مين هيعملّك البدروم!**

وأمسك بتلابيب الغطاء المسكين، واندمج معه في حركة متكورة مألوفة مربّتاً عليه.

حقا، نسيت أمر البدروم هذا، وما أنسانيه إلا حلم عمّي أن أذكره.

بدأت رحلة الخروج من الحجرة. مفترَضٌ أن هذا البيت صُمّم ليكون ببدروم كامل. وحتى اللحظة ولا يريد أبي إنهاء أمر البدروم هذا. لديّ أنا وأخي مشاريع جيدة لا تتم إلا بمكان مثل هذا البدروم.

**- مش هينفع! كلمة وخلصت.**

هكذا تكون إجابة أبي الدبلوماسية الصارمة، ولا نتغير.

ثم هو لا يريد إطلاعنا على تصميم البيت.

إن كان لن يطلعني عليه فلأفعل أنا.

عرّجتُ برحلتي على باب غرفته، ومددتّ يدي مزيحا ضلفة الدولاب اليسرى، فتبرّمتْ وأصدرتْ أزيزا تجاوب معه جسدٌ نحيلٌ لأمٍ خاملة متمدد في أعماق السرير.

سحبت الملف البلاستيكيّ المتورّم ، وأعدت الضلفة مكانها فلم تتبرم.

أكملت رحلتي حتى خرجت إلى الحديقة، وحططت رحال أعضائي عند أول ركن مناسب، ولوهلة أحسست نفسي كأشجار الحديقة هذه، تنمو وهي دائما ذابلة، تتسلق ودائما متدلية، كأنما كتب عليها مذ زرعت من أربع سنوات ألا تبهج ناظرا إليها أبدًا.

أصواتٌ هاربةٌ من الداخل تلوذ بأذنيّ في جلبة وتوتر. لابد أنه أبي يتعارك مع باب الحمّام العنيد. أو أنه "أوفا" العائد إلى الحياة يتعارك مع غطائه.

فضضت فيّ الملف، فوثبت بعض الأوراق خارجه، وانكمشت البقية منها على نفسها بداخله.

هذه، عقد بيع الأرض إلى السيد/ السيد أحمد المحمدي. هذا أبي.

وهذه، صورة ضوئية من محضر تنازل.

(نُقِرّ نحن ورثة المرحوم/ مصطفى السيد أغا، أننا تنازلنا لشقيقـ...

"مصطفى السيد" من؟! أغا؟!

هذا ثاني "مصطفى السيد" يقابلني اليوم. هل أسأل عنه أبي؟!

هذا لن يجدي أبدا. فلو وقفت على رموش عينيّ رجاءً له أن يفيدني لما فعل!

ولكن "مصطفى السيد" هذا مرحوم، أي أنه ميّت؛ هذا لا ضير منه.

أو ...

إياك يا عمّي أن يكون هذا ما تقصده؛ فتكون مرحومًا يرسل سلاما إلى مرحوم، ليبيت المرسالُ ثالثَ المرحومَيْن!

ابتلعتُ ريقًا خلا منه فمي، وتابعتُ قشعريرةً بثتها فقراتي الجذعيّة، وأرسلها عمودي الفقري إلى شتى أنحاء جسدي الحامل.

أهكذا يا عمّي؟! أهكذا تفعل بي وأنا أنيسك في حياتك البرزخية؟!

ومن يكون هذا الـ"مصطفى السيد" الذي ابتليت به في يومي؟!

حسنا. لن أستسلم لفكرة أن أكون ثالث المرحومين..

من سيخبرني عن "مصطفى السيد" هذا؟!

أغا.. نعم أغا !

بإمكان "نينة سميحة" أن تخبرني. أو "الحاجة سعدية". كلتاهما في الحي من قبل أن يصير حيّا.

هكذا كان لابد أن أمدّ رحلتي، مغادرا البيت.

حَسَنُ الحظ أنا أن وجدتك يا حاجة "سعدية".

**- إزيك يا حاجة؟**

**- إن شالله تسلم.. إنت مين يا ضنايا؟!**

**- أنا إبن الحاج السيد أبو محمدي.**

**- السيد الحديدي؟!**

**- أبو محمدي يا حاجة. أبو محمدي.**

**- آه. ستّك كانت رفيقتي يا ضنايا. الله يرحمها.**

**- إلا قوليلي يا حاج، تعرفي حد اسمه مصطفى السيد؟!**

**- حد ايه؟!**

**- حد اسمه مصطفى السيد؟!**

**- مش دة اللي نايم تحت؟!**

**- نايم تحت فين!! خلاص يا حاجة. فوتّك بعافية.**

**- إن شالله يعافيك يا ضنايا. إن شالله تعودها عليك ... .**

لم يعد أمامي سوى "نينة سميحة"، وحتما ستفيدني؛ فهي لم تفقد بعد بصرها، ولم تبلغ الثمانين من عمرها.

ولكن.. آاااخ! هي لم تعد بعد من رحلة العمرة. لتعودي لي بسلام يا "نينة"! ولتخبريني بما أريد معرفته عن "مصطفى السيد" قبل أن ألحق به.

قفلت راجعًا وأنا أنظر إلى واجهة بيتنا الناعس، وسط العمائر المتيقّظة. وبدأت جولتي الداخلية مارّا بالحديقة. أحيانا يبدو لي أنّ البيت كله يتثاءب، بأشجاره ونباتاته وحوائطه وأبوابه ونوافذه، حتى صنابير المياه تتثاءب قليلا قبل أن تبدأ في نزف مائها.

أبي لم يخرج. وأخي لم يستيقظ. ماذا يحول بيني وبين معاينة البدروم؟ لربما أكتشف أنه لا يصلح لمشاريعنا المؤملة، ويُغلق في وجهنا باب شرّ.

المصباح اليدوي كما تركناه منذ الشتاء الماضي. حسنا. هيا.

ودخلت.

ونزلت.

كوماتٌ متناثرة من مواد البناء القديمة. يا للأيام؛ محّرنا بالفعل بعض الجدران. لطخات المصّيص المتساقطة عليها تصنع تشكيلات ناعسة، وربما متثائبة.

خلّفتُ الكومات ورائي، لأستقبل عبق الهواء الراكد البارد. هذا الركن سيكون مثاليا لتحضير خامات المشروع فيه. جميل. والركن الآخر؟!

وجّهت المصباح نحوه فبدا لي بعيدا جدا.

جفناي يتثاقلان، وقدماي أيضا.. هذا أمر معتاد.

تبعت ضوء المصباح إلى الركن، وكلما اقتربت تزايد انتباه أنفي. هذه الرائحة تشبه رائحة غرفة أخي؛ فساؤه فيها لا ينقطع.

تابعت اقترابي. كنت هنا من قبل؛ الأرضية الطينية بعد رفع أكوام القمامة والعمّال يحفرون عميقا لصبّ قواعد البيت، وظهرت تلك الفتحة. في هذا الركن كانت. ومن تحتها كرسيّ مذهب اللون يرقد على جانبه وسط مياه تبدو متحركة.

يومها قال المعمّرون من جيراننا لأبي إنه دهليز تحت الأرض لم يعد مستعملا.

إلى أين يؤدي؟!

"ع الناحيادي كدة !" ولم تكن لهم إجابة غيرها.

وحينما قيل لأبي إنه ربما يكون كنزا تحت أرض البيت؛ أجاب "**لا مفيش حاجة من الكلام دة!**".

كيف عرف؟! لا تسأل. هذا أبي.

أين ذهبت الفتحة؟! أرسلتُ الضوء أسفل مني، فارتد بعضه منعكسا على بعض رقرقات ماء من بين بعض الشقوق. لا زالت الصورة كما هي، ولكن بلا كرسي مذهب!

فقط، هذه الجذور البيضاء الرفيعة الكثيفة تتسرب من بين الشقوق. من أين تأتي يا ترى؟! لعلها جذور بعض أشجار الحديقة. ولكن كيف؟ الحديقة على الجهة المقابلة تماما.

مددت يدي عازما على تتبّع مصدرها، ومسّ يدي تيارٌ دافئٌ مفاجئٌ يقدم من أسفل، وتوقف التيار. رائحة مقيتة تشبه رائحة النشادر!

الآن تستيقظ بعض حواسي بعد سبات طويل. ثوانٍ متلكئة مرّت، وتلكّأت أنفاسي، وعاد التيار الدافئ. بسرعة سحبت يدي، ولم أنتبه إلى قبضها - عفوا- على ضفيرة من تلك الجذور. عندها اندفع التيارُ عنيفًا ساخنًا، حاملا معه خوارًا آدميًا محتجّا!

حاولت القيام، ولكن جسدي فضّل القعود. تركَ المصباح كفي الخاملة، وتركَت كفي الثانية الجذور، واندفعَت كفٌّ ثالثةٌ عريضةٌ عتيقةٌ من أسفل محطّمةً ما حول الشقوق لتقبض على ساقي. أحاول الصراخ ولا تطاوعني حنجرتي المذعورة.

ومن تحت أرضية ذاك الركن نهض. هكذا ظننته فعل؛ ولكنه كان فقط يعتدل جالسا. ضخما كما لم أر من قبل. ومن فوق شلال الجذور الدقيقة الكثيفة، بروزٌ مثلثٌ من فوقه عيناه.

عشرات الأسئلة الخائفة تخشى الخروج من فمي.

ظلّ دهرا لا يتجاوز عدة ثوانٍ يحملق إليّ، وبدأ شلال الجذور في الاهتزاز، مع صوتٍ عميق واهن..

**- إنت تعمِل إيه؟!**

أنا أعمل ماذا! لا زالت يده قابضة على ساقي. انتبهت إلى أنني ربما أكون جالسا فوق فخذه الآن.

**- حد يقلق حضرتُك بهذي طريقة؟!**

بطء كلماته ووهن صوته شجّعا سؤالاً عندي على الخروج..

- **ومن يكون حضرتكم؟!**

لفحني إعصار النشادر القادم مع ثثاؤبه البطـــئ..

- **أنا حضرة مصطفى سيد.**

همستُ ببطء متهيبا "**أغا؟!**"

فأجاب ببطء وتقرير عميق "**أغا**".

- **عمي يسلم عليك.**

توجهت عيناه نحوي ببطء وقد بدأ الاستغراب يتسلل من نظراته، ثم همهم همهمةً عميقة أحسستُ رنينها المكتوم في صدري، وبدأت لحيته العظيمة في الاهتزاز.

جفناي يتثاقلان، ودوّامة تعصف بعقلي، تجذب معدتي كي تخرج من فمي. أسمعُ صوتَ تجشؤٍ مدوٍّ، يليه صوت ارتطام شديد، ورمال باردة تتوسد خدّي، ثم يسود السكـــون.

فتحت عيني؛ لا دوار، لا قيء ولا غثيان، لا "مصطفى سيد"، لا شئ في البدروم سواي، وبعض التفكك في جنبي وظهري. مسحتُ حبيبات الرمال الخشنة الباردة من على سطح خدي، ونهضت غير مكترث، وصعدت خارجا.

آشعة الشمس الحانية تتراقص مع سيقان النباتات وأعراف الأشجار، والأزهار المبتهجة تتمايل متابعة ومقلّدة، وترسل راوئحَ لم تعهدها أنفي في هذا البيت من قبل.

ضحكاتُ أبي تتقافز خارجة من نوافذ البيت المفتوحة على مصاريعها.

أفكّر - كعادتي- في التثاؤب والتمطّي، ولكن لا أجدني بحاجة إلى التثاؤب أو التمطي. فقط هذه الرغبة في الانطلاق.

جلست متمددا وسط الحديقة، منشرح الصدر، أخذت نفسًا عميقًا وأنا أتساءل عمّا حدث، و"ماذا جرى لمصطفى السيد ؟!"..

أغا. نعم، أغا.

أكتوبر 2009م

# لا يبدو الأمرُ مسلياً أبدًا

لا يبدو الأمرُ مسليًا أبدًا.

ظهري الآن نصفان، نصفٌ لا أشعر به، والآخر منذ الصباح وهو يحاول اقتلاع نفسه من جسدي. رقبتي لم أجد لها حتى الآن وضعا مريحا مناسبا لرأسي الحائض، وأنفي المحتلّ لازال مستعبدا يمارس رشحا لا إراديا.

لماذا تأخّرت يا أخي أحمد ؟! الصيدلية ليست بعيدة، والسلّم ليس مرهقا، وأنا لا أحتمل.

أحتضنُ رأسي بقوسٍ جلديّ طرفاه سبابتي وإبهامي، أضغطُ علّ الضجيج يزول، لا فائدة.

هاااااااه. ذاك الزفير الخارج من مضايقي التنفسية، لطالما عرفته. تلك الرائحة الغريبة التي لا أدري كنهها، تربض فيما خلف خياشيمي ومقدمة مخ رأسي من الداخل.

أيضا.. لا يبدو الأمر مسليا أبدًا.

كل شئ من حولي يكتسي بلون المرض الأصفر، الردهة، الحوائط، الثلاجة البيج التي كانت بيضاء، سطح المنضدة المستديرة، حتى الهواء ارتدى ثوب المرض الشفّاف.

آه يا رقبتي! لابد أن أريحها. حسنًا، لتتحمل يا ساعدي الأيسر ثقل تلك الرأس لحظاتٍ قليلةً ريثما يعود أحمد، وتعود معه رأسي إلى مكانها.

* * *

باب الحجرة الأبيض موارب. طلاء الجدران أخضر فاتح! ألم يتغير كل ذلك مذ كنت في الرابعة من عمري؟!

أصواتُ نَهرٍ وصراخ وعتاب. أصوات رجال. معترَكٌ لا أدري كنهه. أشعر أنّ أمي هناك!

يُغلَق الباب، ثم يُفتَح سريعًا، أرى قطع الكافة الشعر تتقافز مشتبكةً مع بعضها، جراحاتها تنبثق منها سوائل بيضاء.

تفتح أمي الباب ثانيةً. ألم يكن مفتوحًا؟!

قطع الشريط الطبي اللاصق تزين وجهها، تبتسم لي، يبدو أنها تخفي شيئًا لا يمكنها البوح به. تواصل قطع الكافة الاشتباك الخشن، و عقدة الإيشارب تكاد تنحلّ من على شعر أمي الناعم.

* * *

طامّةٌ ما تدور.

زوجُ خالتي يأمرني بالابتعاد لأنني لازلت صغيرًا، كيف يظن الناس أن شخصًا بالإعدادية لا يزال صغيرًا؟!

نعم، هذا المكان الأصفر لا أعرفه. نعم، هذا الحشدُ الذاهلُ لا أعرف منهم أحدًا؛ ولكني أعرف ما يجري. ليست هذه أول مرة أراه.

ذاك الضجيج الرتيب الذي يسبق قدومه، ولا تدري إن كان يأتي زاحفًا أم يمشي أم يطير! تلك الغزوة الخاطفة التي يغزو بها مجال البصر، ثم ينسحبُ سريعًا كأن لم يكن!

هاهو الآن قادم.

بل ها هو ذا يمرق ولم أرَ وجهه. ولكن، يهولني كما يهول الجميع ما أرى، إنه ليس واحدًا، بل هما اثنان؛ قطارٌ مِن فوقه قطار، يمرق أحدهما ذات الشِّمال، بينما عجلات الآخر تنهب سطحه عكس الاتجاه، وصوت الضجيج الهادر، والكل ينتظر الكارثة.

ففي مكان ما قريب، تعترض القطارَ السفليَّ شوكةٌ عظيمةٌ نظيفةٌ مقوّسةٌ من صَدر سمكة بلطي، عندما يصطدم بها لك أن تتخيل الكارثة.

من ذا الذي يتحمل أن يرى منظراً كهذا؟!

لذا، لساعاتٍ وساعاتٍ يتوقفُ الزمن عند هذه اللحظة، ولا ترى عيني سوى هذه الصورة الثابتة...

ولا يبدو الأمرُ مسليًا أبدًا.

* * *

لا مفرّ.

إنني أنتظرهم. ولأنّي مريضٌ لابد أن يأتي من يعودُني، يطمئن عليّ، يخفّف عني قليلاً من كثافة اللون الأصفر الذي انقطعت به وانقطع بي، كلانا عن الدنيا الجميلة التي تناسب كائنا في مقتبل عمره مثلي.

وهاهي طرقاتهم على الباب. أتمنى ألا يفاجئوني. ربما جاءوا في مجموعات كما أتوقع، وكل مجموعة هي هي ذات المجموعة السابقة لها والتالية لها.

أفتح باب الشقة، يدخلون. شموعٌ ذاتُ قوامٍ حلزونيٍ صاعدٍ تشبه شموع أعياد الميلاد، بألوانها الصفراء والحمراء والبرتقالية والخضراء، وربما البيضاء، كلها مشتعلة بلهب مودّةٍ هادئ.

أُرحّب بهم، يدخلون من جديد. تطبع كلٌّ منهم على خدّيّ لسعةً حانيةً.

أُجلِسُهم إلى منضدة السفرة، وأفسح لهم الكراسي ليجلسوا عليها.

حواراتٌ طويلةٌ دارت لم تتجاوز الإيماءات. تفاهمنا على كل شئ بلا كلمات، لا ريبَ أنهم مشكورون.

أشعرُ بالباب يُطْرَق، وإن لم أسمعه. أقوم لأستقبلَ وفدًا جديدًا من الشموع، هي هي نفس الشموع الجالسة بالداخل.

أرحِّب بهم وأدخلهم، وأفسِح لهم كراسي سُفرةٍ لم ولن توجد في شقتنا، لا ريب أنهم أيضا مشكورون.

لا صوتَ هنالك، ولكني أشعر بالباب يُطْرَق. أقوم.

لا يبدو الأمرُ مسليًا أبدًا.

* * *

أتَوني زائرين.

لا أعرفهم، ولم يحدث يومًا ما يجعلهم يعرفونني، ولكن يبدو أننا نعرف جيدًا بعضنا البعض.

من نفسِ باب الشقة دخلوا، وإلى نفس الردهة اتجهوا، وعلى السفرة الدائرية ذاتها - التي لم ولن توجد- اتخذوا جميعًا مواقعهم؛ كلٌ يرتدي زيّه اللامع المميّز، وكلّ زوج – رجل وامرأة- يركب دراجته النارية.

وهكذا، انطلقوا في سباقاتهم؛ خمس دراجات نارية ترسم خلفها خطوطًا سوداءَ فوق سطح المضمار.

حميَ السباق، واصطبغت الأجواء بلون بنيّ مقبض، وكلما حدث بينهم خلافٌ أو اعتراضٌ جاءوني وكلهم يُشْهِدُني؛ فأُدلِي برأيي ليعودوا جميعًا إلى مضمار السباق راضين.

لا زلتُ جالسًا إلى منضدة السفرة التي اتخذوها مضمارًا للسباق، أواصلُ اندماجي وأنا أدور خلفهم بعيني متابعا تلك السباقات المحمومة التي لا ولن تنتهي.

رُحتُ أتابعُ وأتابعُ، واللون البني تزداد كثافته، ولا زلتُ أدور.

توقفوا متشاحنين، وجاءوا يستشهدون برأيي، وأنا لازلت أدور.

لا زالَ اللونُ البنيّ يزيد من كثافته..

ولا يبدو الأمرُ مسليًا أبدًا.

* * *

ومع ذا، لا زلتُ أدور.

وصلتُ إلى حافة النوم، ثم إلى مشارف اليقظة، والصداع المتمكن من رأسي يعلن عن نفسه، ويوقظ آلامًا تصحبُ جسدي المستلقِي لوقتٍ يبدو أنه ليس بالقصير.

صوتُ أمّي الخافت تركل كلماته طبلتي أذني "**ماهو يومين أهوه.. والدوا اللي بيروق عليه مجابش نتيجة. اتصل يا أحمد بصاحبه الدكتور !**".

لا أريد أن أفتح عينيّ..

لا أجدُ الأمرَ مسلّيًا أبدًا.

أغسطس 2010م

# ذِكرى الأجسادِ الباردة

ليلة أمسِ يا حبيبتي كنا معا، ممدّدةً منقطعةً إلى كتابك، وممدّدٌ أنا لائذٌ بالغطاء. وبرودة جهاز التكييف من فوقنا، ومن تحتنا فراشُنا البضّ.

رجوتُكِ لو تغلقي جهازَ التكييف أو تخفضي من برودته. ابتسمتِ لي ابتسامتَكِ الواعدة، وأنساني دفءُ حضنكِ وحرارةُ لقائكِ برودةَ التكييفِ ودفءَ الغطاء.

أذكرُ آخر ما ردّدتُه قبل السقوط نائمًا؛ ألا تنسَي إغلاق منظّم الغاز.

والآن يا حبيبتي، هذه البرودة الساطعة تكاد تنسيني دفءَ حضنك. أين الغطاء؟!

ممدّدةٌ منقطعةٌ إلى ابتسامتكِ الخافتة الجامدة. أين الكتاب؟!

وممدّدٌ أنا بجانبكِ، مِن حولنا ومَن أسفل منّا المعدن البارد اللامع. أين الفراش؟!

الآن يا حبيبتي لا زلنا معًا؛ فلا تنسَي إغلاق منظّم الغاز.

ديسمبر 2010م

# لَيلُ هلوسيـّات

أمام بوابة بيتنا أقف. أضغط جرس الطابق الثاني حيث يسكن بشر أقرباء لي.

لا صوت!

يبدو أنهم فصلوا الجرس قبل نومهم. الأضواء أيضا مُطفأة.

أرمي بطوب صغير في الشباك علهم يستيقظون. أنادي عليهم. ولكن لا مجيب.

إنني متأكدٌ تمامًا أنه هنا تسكن أسرتي، وأن هذا بيتنا، و إلا فبماذا أفسّر وجود لافتة تحمل اسم أبي على البوابة بجانب الجرس؟!

لا أتذكر بالضبط – وسط هذا الدوامة الواسعة الذي أتجول فيها منذ وقفت– ما الذي أخّرني؟! ولكن هذا لا ينفي حاجتي إلى أن أعرف كم الساعة.

أحدهم يمر من على أطراف الدوامة، بل من على أول الشارع.

**- يا أستاذ لو سمحت.. الساعة كام ؟!**

أجاب وهو مستمر في مشيه بعد أن نظر في ساعته..

**- تلاتة إلا ربع.**

يااااه! الثالثة إلا الربع!

هل أنا متأخرٌ لهذه الدرجة؟! أم أتيت مبكرًا؟!

لا أحسم أمري قطّ في هذه المسألة، فالتأخير والبكور في هذه الأوقات والظروف، مسألةٌ نسبيةٌ خالصة، وأنا موقنٌ تمامًا بهذا، كيقيني بأنني لو رجعتُ ستين عاما إلى الوراء لوجدتُ "أينشتين" مستيقظًا في هذه الساعة يقف أمام بيته حائرًا، وقد عاد من المؤتمر متأخرًا، ليجدَ زوجتَه قد نامت مبكرًا.

وكما ترون، فلم يتفوق عليّ أينشتين في شيءٍ سوى أنه كان يعرف ما الذي أخّره.

غدًا أقابلُ أحد أصدقائي فيخبرني عن سبب تأخري، وأفوّتُ على أينشتين فرصة تفوقه عليّ.

إذاً فالساعة الآن الثالثة إذاً. إذاً، وبمَ أنّ. إذاً. وسوساتٌ هندسية تسيطرُ على تفكيري ثانية. ماذا يمكنني أن أفعل إذاً؟!

ستزول هذه الوسوسات عمّا قريب إذاً.

بحسبة إقليدية شبه مركبة، اكتشفتُ أنه يتبقى على أذان الفجر ساعة ونصف، وسيخرجُ أبي للصلاة، وأدخلُ أنا. هاها، لن تتغلب الظروف على عبقريتي مهما كان.

نسيتُ أن أستوضح حين رجعتُ ستين عامًا للوراء، إن كان "أينشتين" سيتصرف بمثل عبقريتي هذه.

كيف إذاً أقضي هذه الساعة والنصف؟!

عندما أكونُ في البيتِ أحبُّ الجلوسَ دائمًا، وعندما أكونُ خارجَه أحبُّ المشيَ دائمًا، وعندما أكون في المواصلات أضطر إلى الوقوف دائمًا.

وهكذا اتخذت قراري، سأتمشى في البلدة الخالية على حالتي هذه.

هل أشعر بالخوف؟! لستُ متأكدًا. مثلُ هذه المشاعر لا نتأكّدُ منها إلا بعد انقضاء الحدث. هذا إن قدّرت لك الحياة لما بعد الحدث.

بالفعل مشيت، وأنا أتساءل تلك الأسئلة التي لا يمكن أن تميز مضمونها أبدًا. كل ما هنالك أفاعي التعجب تلك، تبرز متمايلةً متراقصةً على عَطفة كل شارع، وحيّات استفهامٍ تزاحمها باحثةً لنفسها عن مكانٍ غير ملائم لها إطلاقًا، ثم تتواري مني خلف الفراغ بيني وبينها كلما اقتربتُ.

حسنًا، أين ستذهبون مني؟ بيني وبينكم ساعةٌ ونصفٌ، وشوارعُ خاليةٌ، وظلامٌ متربص.

أمشي وأنا أتظاهر بأنني شاردٌ في شيءٍ خاصٍ بي، وكأنّ مشكلاتي تعتصر ذهني، بينما عقلي وأذنيّ رادارٌ متحفّز. أتظاهر باللامبالاة، وأنا في غاية الترقب. أدخلُ الشارع بكل تؤدة ممكنة، وبداخلي تلك الرغبة العارمة في أن أطلق ساقيّ للريح كما في توم آند جيري.

تقلصت الدوامة الواسعة التي تصحبني، وسناجب استفهام أليفة تتقافز على أطرافها بخبثٍ بريءٍ، وآلافُ العيون التي لا أراها تراقبني، وعشراتُ الأجساد الخفية الساخطة تزاحمني، وأنا أتدافع بينها ذات اليمين وذات الشمال. ظلالٌ تشاركني أفعالي وتحركاتي؛ لا مجال للخصوصية في هذا التوقيت.

نفس البيت المهجور الذي تهدّم ثم أعيد بناؤه منذ زمن طويل ولا يزال مهجورًا، أمُرّ من أمام بوابته. تبًا؛ نفسُ قبعة القشعريرة تتكون في قمة رأسي. إذاً، إلتفاتة شجاعة.

ربّاه! إنها المرأة العجوز هي هي، بنفس الرداء الأسود، والجلسة المتكومة وهي محنية الظهر! عشرون سنة مرّت مذ رأيتها هكذا عصرَ أحدِ الأيام قابعة في عمق حجرة في آخر البيت، خلفَ أنقاضٍ مليئةٍ بأكوام القمامة.

تتوارى مني علامات التعجب **المتراقصة** على عطفات الشوارع الصامتة، إلا من عُواءٍ ومواءٍ وصرخاتٍ وهمساتِ قططٍ شبقةٍ صاخبةٍ. لستُ متأكداً إن كان هناك من يسمعها غيري.. **الخالية،** إلا من تلك الكائنات التي تجبرني على الإقرار بأن كوكبنا يتحول ليلاً إلى كوكب قطط. **الساكنة،** إلا من تلك الحركة العابثة التي تتخلل دخولي عطفة كلٍ من هذه الشوارع.

فمذ بدأت سيري، وهناك من يعبث معي، ينتظر حتى ألج الشارع بذات التؤدة، ليبرز فجأة بسرعةٍ خاطفةٍ من جانبٍ، مخترقًا الفراغ إلى الجانب الآخر. إنه حريصٌ على ما يبدو أن يريني وجهه، ولكنّ سرعتَه الخاطفة لا تمكنني من تمييز ملامحه.

أكثر ما يثير حنقي الآن، تقلّصُ الدوامة من حولي. لقد عادت إلى مستقرّها داخل رأسي. لأكن أكثر حذرًا إذاً من الآن فصاعدًا.

شارع مظلم آخر، بلا أفاعٍ متراقصة على عطفته. مثلُ هذا الإغراء لا يُقاوَم. بضع خطواتٍ وتكونُ خارجَه. أرأيت؟! ها أنت ذا قطعت خمسَ خطواتٍ خلال أقل من ثانيتين؟

وهذه خطوة سادسة. الأمور تزداد سهولة.

وهذه السابعة. مثل هذه الخطوات لن تحتاج إلى الندم عليها مستقبلاً.

وهذه الثامنـ...

طوفانٌ من القشعريرة امتصته قدماي من الأرض، وصعد حتى أغرق جسدي، وملأ رأسي عن آخره، ورفعني من حيث أقف، ليأخذني إلى حيث الحركة الدائرية الأبدية.

انطلق الكون يدور من حولي بجنون، في عكس اتجاه دوراني المحموم، والمجرات من حولي تملؤها علاماتُ الاستفهام تتخذ أوضاعًا حميميَّة لامتناهيةً مع علاماتِ تعجبٍ، تتلاحق وتنفصل في تكاثرٍ دوريّ لا يتوقف، والبلايين من أشباهها تتوالد من بينها.

تتصارع عليّ الثقوب السوداء تحاول نجدتي مما أرى.

يتفاداني إلكترون هائل، ليصطدمَ بشمسٍ ملتهبةٍ. يدوي الانفجارُ الصامتُ لينشرَ علاماتِ تعجبٍ واستفهامٍ ناريةٍ تنتظمُ كلها في شبكةِ عنكبوتٍ هلاميّةٍ وسط ظلام الكون من حولي.

تتدافعني الخيوط الهلامية، تجذبني وتطرحني، تدفعني وترفعني، يحتضنني ثقبٌ أسودُ، يحتويني بحنان، أهوي بينما تنهمر شلال أشعر برؤيتها ولكن لا أراها. إنها قادمة لتغرقني، تتّحدُ في حزمة واحدة تخترق ذراعي. تلك الأمواج تكاد تسحقني.

أسعلُ بشدةٍ كما لم أسعل من قبل. تتبخر العلامات النارية من حولي، وقد أطفاها رذاذ سعالي. تخترق ظلامي حزمةٌ أفقيةٌ من الضوء لا تلبث أن تنتشر. أمواجُ الضوء تجثم فوق عيناي.

يبرز لي وجهها الجميل، والدموعُ تسيلُ من مقلتي استفهامها، وهي تلملم أشلاء حقنة بيديها..

**- حمد الله على سلامتك يا حبيبي.**

أحاول استدعاء تلك الابتسامة التي توارت مني بداخلي.

**- بعد كدة لما تبقا تلاقي البوابة مفتوحة والنور قايد متبقاش تاخد في وشك. وللا حتى إضرب الجرس! معرفش ايه اللي عاجبك في اللي انت فيه ده! بتلفّ تدور على ايه ؟!!**

تذوب نفسي. تسيلُ مني لأسفلَ متكوّرةً على ذاتها. ينكمش جسدي رغما عني متحورًا إلى علامةِ تعجبٍ آدميةٍ، استقرت فوق قاعدتها المتكورة.

**"بتلفّ تدور على إيه؟!"**

يوليو 2007

# إلهٌ يعترف به الزعيم ضمنيًا

يُنهي إفطاره سريعًا، يدلف إلى حجرة مكتبه، تدلف زوجته وراءه.

**- هل أعدّ لك شيئاً آخر؟!**

**- فقط قدحًا من القهوة. قلّلي السُّكر هذه المرة.**

ترمقه بنظرةٍ متسائلة مستوقِفة.

**- فقط؟!**

منهمكٌ هو في لملمة بعض الأوراق على مكتبه، يتناول قلمًا..

**- نعم. فقط الآن. شعبي ينتظرني، ولابد أن أطمئِنهم.**

يلتفت إليها بجدّية وتقرير..

**- وأطمئنّ عليهم أنا الآخر.**

* * *

قدحُ القهوة يتّخذ موضعه المعتاد. يجلس هو على كرسّي الزعامة، مستقبلاً النافذة الزجاجية التي يطلّ منها على شعبه. ينظرُ إلى الأفُقِ الأزرقِ، عادةً لا ينظر إلا إليه.

يؤدّي عادته المحبّبة كل يوم؛ ينقش فيه حروف اسمه، إلى جانبها بضعة نجومٍ غامضةٍ غموضَ المجَد.

بضعة تكّات، تُختَم بتكّة كبيرة، الآن يتجلّى على شعبه. الأفق يتزيّن بصورته جالسًا على كرسيّ عظمته، وفي الجانب تشرق شمسُ طلعته في إطارٍ مستقلّ.

يرسل تحيّاته إلى شعبه..

**- صباحُ الفلّ يا شعبي.**

تأتيه التحيّات والردود..

**- صباح الفل يا زعيم.**

**- أحلى صباح، بقالنا كام ساعة محدّش شافك.. لعله خير.**

**- أبو أم الفيس بوك اللي يخلينا نصطبح بأشكالك يا *&^%.**

**- هاي يا زعيم.**

**- فين المصلحة يا ريّس؟!**

يستطيعُ أن يتقبّل احتياجات شعبه ومطالباتهم المتكررة، يمكنه أن يتفهّم تذمّرهم وتملّقهم، وأولئك الذين يتجاوزون حدودَ احتماله الضيّقة يعاقبهم بالحظر من كافة مزايا شعبه المُختار. أكثرُ ما يثير اطمئنانه عدّاد شعبيته. قائمة الحاصلين على الجنسية وصلَت حدّها الأقصى، وطلبات الحصول على الرضا - ومِن ثَمّ الجنسية- تنتظر موافقته عليها، وأعداد المتابعين لأخباره من الخارج تتجاوز حدّ طموحه كل مرة وتلهِمُه طموحًا جديدًا.

* * *

فجأة، تنبثق له في الأفق الأبيض رسالة تحذير..

**- هناك طلبات صداقة كثيرة تنتظر. نخشى أنّك لا تتعامل مع الموقع وفقاً لأغراض التواصل الاجتماعي الذي أنشِئ من أجله. أمامك 24 ساعة للموافقة على طلبات الصداقة أو رفضها وإلا سيتمّ تجميد حسابكم ثلاثة أيام.**

يُحملق في الرسالة. يُعيدُ قراءتها، مرةً بعدَ مرةٍ، يتراجعُ متفكّرًا في أولئك المساكين من أبناء شعبه، الذين سيضطر للتضحية بهم ونزع الجنسية عنهم، وربما نفيهم. هناك أمورٌ نضطر إليها أحيانًا لأجل الصالح العام، هناك تضحياتٌ لابدّ منها، حتى وإن كنّا ساخطين.

* * *

يتترّس بكرسيّ زعامته، يستعرَضُ قائمةُ مواطني شعبه، يبدأ في انتقاءِ المُبعَدين، وكلّما أبعدَ واحدًا تمتم في ألم:

**- تبًا لعالَمٍ إلهُه يُدعى (مارك).. لأقودّن عليك حملةً أؤلب فيها عليك شعوب الأرض لتغيّر هذه الخاصّيّة.**

29 – 9 – 2013م

# صوتٌ، مجرّدُ صوت

صوتٌ. هو مجرّد صوتٍ. لا يستطيع الحصول على أكثر من ذلك.

**الشقة القديمة ذاتها، في الطابق الثالث ذاته ...**

يستيقظُ عقلُه بغتةً. من على سريره لا يزال يرى الطابق الثالث بعينِ الحالِم، بعض الأضواء الصفراء تضيءُ داخل الشقة من هذه الجهة الخلفية، الشرفة الطويلة وبابها، والنافذة المطلّة عليها.

الصوت! يبدو الصوتُ مألوفًا. يعرف أنها هي.

لحظة،ومن تكون هي؟! أمرٌ غريبٌ أن يعرفَ صوتَها ولا يعرفها.

ما الذي جاء بها هنا؟! وماذا تفعل؟!

يتلفّت إلى الطرف الآخر من السرير، باحثًا عن شيءٍ يشربه، ماءٌ أو حيرةٌ أو ربّما يشرب لاشيء كعادته مؤخرًا.

منذ متى لم يَعُد ليَرَى الشقّة القديمة؟! بل منذ متى وهو لم يعد يذهب إليها في أحلامه؟!

زمانٌ طويلٌ طولَ الذاكرة.

* * *

صوتٌ. هو مجرّد صوتٍ. لا يستطيع الحصول على أكثر من ذلك.

**الشقة القديمة ذاتها، في الطابق الثالث ذاته، يصعدُ ككلّ مرة ...**

يستيقظ عقله بغتةً، يفتحُ عينيه بأقصى اتساعهما غاضباً، ما الذي يحدُث؟! لماذا لا يَكتملُ الحلم؟! لأول مرة في حياته يتكرّر حلمٌ ما في منامه، بل وتستمرّ أحداثه. هل ثمّة شيءٌ ما يجري؟!

يمدّ يده بطولها جانبًا باحثًا عن شيءٍ فوق الكومود، يعيدُها ويعبثُ بوجهه في حركتين، يكشف يدَهُ عن وجهٍ تُغطّي عينيه نظّارة، ومن تحتها عينان تتأملان الفراغ بفراغ.

التساؤلاتُ ذاتها حول الشقة القديمة، كان يصعد وفجأة استيقظ بين الطابقين الثاني والثالث، لطالما كانت أحلامه السابقة بالشقّة تحمل تفصيلة الصعود هذه، ولكنها قطّ لم تنقطع!

ما الذي لا يريدُ عقله أن يُطلعَه عليه في أحلامه؟!

* * *

صوتٌ. هو مجرّد صوتٍ. لا يستطيعُ الحصولَ على أكثر من ذلك!!

**الشقة القديمة ذاتها، في الطابق الثالث ذاته، يصعدُ ككلّ مرة، يسمعُ صوتَها في المطبخ، تعدّ الطعام مع صغيرتها. في المطبخ؟! تفاصيل الشقة مختلفةٌ ...**

يستيقظُ عقله بغتةً كعادته آخر ليلتين. تبًا، لم تتسنّ له رؤية بقية الاختلافات التي طرأت على الشقة. يستجمع يديه خلف رأسه متمطيًا بزمجرةٍ متضايقة، يفرغ منها

وقد تركتَ حاجبيه مقطّبين، وشفتيه ممتعضتين. الآن يعلمُ أن الأمرَ كما كان سابقًا. الأمرُ يتعلّق بالشقة ذاتها.

هناك صغيرةٌ انضمّت إلى المشهد. لم يرَهَا، ولكنه يعلم أنه بمجرد دخوله الشقّة كانت صاحبة الصوت في المطبخ مع صغيرتها.

ثوانٍ، هل كانت تأمرها بشيءٍ؟! نعم، ربّما سمعها تأمرها بجلب شيءٍ. من الثلاجة على الأرجح. أم كان من المطبخ الخشبيّ؟!

ينقلبُ على جانبه الأيمن متوسّدًا عضدَه، متفكّرًا في عمقٍ ضبابيٍ ناعسٍ، هل الأمر يستحق كل هذا العناء؟!

اللعنةُ على الشقة القديمة!

بل اللعنةُ على صاحبة الصوت!

ولعنةٌ أخرى صغيرةٌ على مقاسكِ أيتها الصغيرة!

* * *

صوتٌ. هو مجرّد صوتٍ. لا يستطيع الحصول على أكثر من ذلك.

**الشقة القديمة ذاتها، في الطابق الثالث ذاته، يصعدُ ككلّ مرة، يسمع صوتَها في المطبخ، تعدّ الطعام مع صغيرتها. يتتبع الصوت، الطعام له رائحةٌ مميّزة...**

يستيقظ من نومه بغتة، بينما هو على وشكِ رؤيتهما. هذه رابع ليلة. الأمر مبهمٌ مثيرٌ للقلق، هل ثمّة رسالةٌ ما؟!

الصوت، الشقة القديمة، المطبخ، رائحة الطعام، شخصيات لا يعرفها، لماذا تطارده تلك الأحلام بإصرار؟!

الرائحة؟! رائحة الطعام لا زالت في أنفه. ما أجملها صاحبة الصوت لو أنّ طعامَها رائحتُه هكذا!

يبتسم، يحاول أن يتخيّل شكلها، كيف هي تلك التي تطهو مع صغيرتها؟! كان على وشك رؤيتهما، صاحبةَ الصوت والصغيرة.

رائحةُ الطعام الزكيّة لا تفارق أنفه، تعلو وتزداد، يبتسمُ في ظلمة الغرفةِ، سيحتاجُ ساعةً على الأقل كي يعود إلى النوم.

يشعر بالجوع، ينهضُ جالسًا، يزيحُ الغِطاء، يعتدل في جلوسه أكثر وقدماه تبحثان عن الشبشب أرضًا، يتمطّى ويتثاءب ويفرُكُ وجهه، ويعبثُ بشعر رأسه، وفجأةً يتوقف، الرائحة! الرائحة تبدو قوية، كما لو كانت حقيقية.

يفتح الباب، الرائحة أكثر قوةً ووضوحًا.

المطبخ، الرائحةُ تنبعث من المطبخ. يبدو المطبخُ مألوفًا، يشبه كثيرًا مطبخ الشقة القديمة في الطابق الثالث.

الفضولُ والدهشة يأخذانه، ضوءُ المطبخ مطفَأ، فلماذا الرائحة؟!

يضيءُ المصباح.

صوتٌ. هو مجرّد صوت. لا يستطيع الحصول على أكثر من ذلك. بل صَوتان.

باب الثلاجة يُفتَحُ ثم ينغلق.

الملعقةُ تتراقص وتدور في إناءِ الطهي فوق نارٍ هادئة، وصريرُ الصنبور المُغلَقُ، تدور رأسه فينزل الماء.

انتفاضةٌ تسري من جسده إلى الأرضية تحته، فتعيدها له الأرضيةُ شاكرةً.

يتحسّس عينيه باحثًا عن نظارته، لا نظّارة.

يتمنّى لو يستيقظ عقله بغتةً ككلّ مرة.

يضربُ رأسَه، يرطمُ وجنَته، لماذا لا يستيقظ عقله بغتةً ككلِّ مرة؟!

أكتوبر 2011م

# قَلبُ مَنْ؟!

- "حَشدٌ منكَ يملؤ ساحات قلبي"..

الممرَاتُ تنبِضُ، ترتعِشُ، لا صوتَ، ولا أدري من أين تأتي الكلمة؟!

أحقًا سمعتُها؟! لا أذكُر.

أمخّضُ نفسي من مَمَرٍّ إلى مَمَرٍّ، الأُلفةُ تطاردني، والحيرةُ تلوذُ بي، هذي ممرّاتي.

ربّما قرأتُ الكلمة، أين قرأتُها؟! لا أدري.

جُدران الممرّات المتجعّدة تُبرِز رسمَ حروفِها، ثم تمتصُّها، وكأن لم تَكُن، والتتابعُ يشتعِل.

لكنّي أحسُّ الكلمة. رُبَّما أُحسُّ بها، هل أحسُّ بها فعلاً؟!

- "حَشدٌ منك...

أبوابٌ بلهاءُ تتهادى على فوّهة كلِّ مَمَرّ، وأخرى تنتصبُ تتحرّش بفراغاتٍ تتبقّى.

أبحثُ عن الحشد.

ربّما الحشدُ الأخرسُ يهتف. لا أراه ولا أسمعُه ولا يتكلّم. والممرّات خاليةٌ إلا منّي. كيف هو الحشد؟!

من وراء عيني ألمَحُه، من بابٍ إلى بابٍ يمرُقُ متلصّصًا، جُزءٌ منّي أحسَبُه فارقني. أمرُق خَلفَه، والممرّاتُ ترجوني الشفقةَ بجدرانِها.

لا أجدهُ ذاكَ المارقَ منّي، آختفى أم تلاشى؟!

**- ... يَمْلَؤُ سَاحَاتِ..**

وَشمُ الأصداءِ يرتسمُ ويتلاشى، ولا يُخبِرُني شيئًا.

**- ...سَاحَاتِ قَلْبِي".**

الحيرةُ تحاصِرُني، يَلُفُّني الألمُ مُحتويًا، يعتصرُني الذُهولُ، وعُصارَتي تُشَكِّلُها الدهشةُ سؤالاً أخيرًا واحدًا..

**- " قَلْبُ مَنْ؟!".**

مارس 2011م

# طَلّةُ شهرزَادي الأخيرة

أفقٌ عميقٌ عُمقَ الكَون، يتخّض ضبابًا تلاحقُ زخّاته بعضُها بعضًا بهدوءٍ ناعمٍ. المدى لا يحمِل لونًا سوى لونِ الضوءِ البِكر. وَحدَه كان يقفُ مطمئنًا، ينتظر. بل هو يتقدّم واقفًا يَعبُرُه الضوءُ والضباب.

لم يكلّف نفسَه عناءَ الالتفات باحثًا، فقط انتظَر، واليقينُ يغمره أنها ستأتي.

حفيفُ الخطوات هذا، يعرِفه. ككلّ مرةٍ يختلطُ لديه حفيفُ الخطوات مع تعاقُبِ الأنفاس، ولا يهتمّ ما دامت هيَ هيَ.

ينفلقُ الضوءُ، ويتراجعُ المدى، وتخسرُ زخّاتُ الضباب متراكمةً مُفسِحةً لقدومها، وتلوذُ بجسدِها موجاتُ ضوءٍ وضبابٍ يلتحفُ بعضُها بعضًا، ونسيَ لمرآها كيف يكون النّفَس، وانحصرَت حياتُه فيما بين دقّةِ قلبٍ وأخرى.

تأمّلَته بعينيها الزرقاوين قليلاً، كانت تعلمُ بقدومه، وأرسلَت كلماتها بصوتٍ أنهى حُلمَه القديم بسماع صوت الملائكة.

**- أشكر اهتمامك بسرعة تلبية رغبتي!**

لن يخشى شيئًا بعدُ قطُّ، نكشيته انتهاء هذا اللقاء. تنهّد ونظر حوله مستجديًا كُلَّ شيءٍ..

**- الأمرُ ليس سهلاً كما تعلمين، وحسبي أنني قدّمت أفضل ما كان في وسعي.**

ابتسمَت له تطمئنه بأنها تصدّقه.

**- أُذكريني في مَلَئِكِ بالذي هو خير.**

**- أبدًا أذكُرُك، وقلبُك يُخبِرُك.**

تدحرجَت على خدّه دَمعَةٌ ثلجيّةٌ وَثَبَتْ عنه قبلَ أن يتدارَكَها، وانتزعَ نفسه من كلِّ شيءٍ حوله، وألقى روحَه في زُرقَةِ عينيها.

**- هل قد تعودين يومًا؟**

تهادى الحزنُ ما بين ملامحها، وتبعهُ الإشفاق.

**- لم أكن أعلم أنني سأعود هذه المرة، وربما لا أعلم إن كنت سَأعُودُ مرةً أخرى.**

البردُ يتخلّل صدره، يجمعُ شتاتَ قلبه، يربطُ مجامع جأشه..

**- لا تخشَي عليّ عذابًا، فأنا أعلم أننا حِينًا ما سنعود. والله المستعان على ما بقي!**

بادرته بحِرصٍ أربكَ حركةَ موجاتِ الضباب وانكسر له الضوءُ هُنيهةً..

**- فِداكَ روحي، هي كلّ ما بقي. وما أردتُ بك عذابًا، واللهُ يعلم.**

الغُصّة تشُقّ الأفقَ، تُنصّفُ المَدى، تَكسِرُ الضوءَ، تشطُر روحَه، تُفجّر اختناقًا يغمُرُه بدَمعٍ جَفّت منه عيناه قبل مجيئه..

**- ضَعي تحيةً تُنهي الكلام. مثلكِ لا تُعجِزُه الكلمات.**

**- ليتَ الكلامَ يريحُكَ حين أنهيه!**

**- لا نبحثُ عن الراحة كما تعلمين، ولم نعُد نفعل.**

يلثُم الضوءُ وجهَها، يتخلّلُ الضبابُ خصلاتها، يعانقُ ملامحَها، يحجزُها عنه تمهيدًا للغياب..

**- أتمنى لكَ من السعادة ماعجزتُ عن منحه لكَ!**

هَمّ بتمزيق حُجُبَ الضَوء، وحُجُزَ الضباب..

**- تكلّمي عمّا تعرفين. لا تعرفي ولن تعرفي كَمّ ما منحتنيه حقًا. تلك الأمورُ تبقى ولا تُمحى.**

رآها تتوارى مبتعدةً والضبابُ يدفَعُ عنها شعاعَ بصرِه، ويتكفّل الضوءُ بما بقي.

دفّقَ نبعَ مرارةٍ أنساهُ حلاوةَ كلّ ما كان..

**- أترحلين عنّي ككلّ مرة؟! وبلا كلام؟!**

لا حفيفَ خطواتٍ، ولا تَعاقُب أنفاسٍ، فقط، أتاهُ صوتُها بعدَ هُنيهاتٍ من بين تلافيفِ المدى..

**- كُنتَ وحدَك سيّدي، وقد أدركَني صباحِيَ الأبديُّ كما ترى.**

واكتنفَهُ الحنينُ إلى الأبديةِ، وظلّ يردّدُ مُلتاعًا بلا صدى..

**- متى تطلُع يا صباحي؟! متى تطلُع يا صباحي؟!**

14 – 12 – 2011م

# إنهم لا يعودون

وقفتُ، حيث يقف معي آخرون، أنتظرهما. وعلى أول الطريق المنحني كانا آتيين يتقدمان جمعًا غفيرًا من الناس. أتَوا معهما، كي يوصلوهما إلى مساكنهما الجديدة المعدة لهما خصيصًا، وقد جاءوا من سفر طويل بعيد، من الإسكندرية، ونحن هنا في الشرقية، مائتا كيلو متر تكفي - بلا شك- لأن يأخذَ المرءُ فرصته في راحةٍ بعيدًا عن الناس.

وهكذا، جرت مراسمُ الاستقبال سريعة، والناسُ لفرطِ حبهم لهما يكادون لو يحملهما كل منهم على عنقه.

وصلوا إلى مساكنهم الجديدة؛ سلامٌ وقبلاتٌ حارة، ودموع.

الناس تقف، الجمع يقف، المشاعر المختلطة تقيد كلا من الواقفين.

انفصلتُ عنهم وجلستُ هنيهة بعيدًا وحدي، مرتاح البال لأني صافحتهما ورأيتهما في الإسكندرية، قبل أن تقلّهما السيارة وتأتي بهما إلى هنا.

نحن الآن عصرًا، والجو حار، فلأعُد إليهما في المساء.

في المساء أتيت. هذه المساكن تشبه بعضها لدرجة الخلط. المكانُ شبه خالٍ، هذا أفضل بالتأكيد؛ كي ينعما بالراحة بعيدًا عن الضوضاء.

وصلتُ إلى مسكن الأول "عبد الحميد". وقفتُ قليلاً. البابُ موصَدٌ بإحكام. إذن أنتظر.

وعلى اليمين، رفعت رأسي أنظر إلى مسكن "صالح" الجديد, تراه خرج؟! لا يبدو أن أيًا منهما قد فعل.

جلست مكاني. كأن كلاهما ذهب في رحلة داخل بيته الجديد، رحلة رجوتها ألا تطول. إذن أنتظرهما حتى يعودا.

مرت ساعة؛ أحيانا يضطر المرء إلى مزيدٍ من الانتظار.

وساعة أخرى؛ لابد أنهما آتيان. عادةً من يذهب في رحلة يعود.

وساعة ثالثة؛ ساعة أخرى وإن لم يعُد أحدهما على الأقل، فسأنصرف وأعاودهما غدًا.

لقد زاد حنيني إليهما بشدة، منذ أن قابلتهما هذا الصباح. كان لقاءً غير عادي، أمسح بيدي على شعر "صالح"، أقبّل رأسه وأنا أنظر إلي ابتسامته الهادئة المشرقة.

تتشابك أصابع يدي مع أصابع يد "عبد الحميد"، أطرافه باردة يحتاج إلى من يدفئها له، فأمامه سفر طويل. القاعة أيضًا باردة، بها أشخاص بمثل حالته ينتظرون من يقابلهم بمثل ما قابلته به هو و"صالح".

ماء. غبار. طرق أسفلتية. كَبَارٍ تعبرنا صعودًا وهبوطًا. ملابس بيضاء. رنين موبايل يتلوه آخر وآخر. أصواتٌ مختلطةٌ لجموع المحبين أثناء الاستقبال. صور كثيرة تجتمع على رأسي.

مضت الساعة الأخيرة؛ هل عاد أحدهما؟!

قليلٌ من الانتظار ربما يجدي. ولكن كيف وحتى الآن لم يُجدِ أكثرُه؟! إذن أنصرف، وأعود إليهما باكرًا.

وقفت. ولماذا لم يعودا حتى الآن؟! كنت أتمنى لو عادا أو عاد أحدهما؛ إنني أنتظر منذ وقت طويل.

ولأكثر من ساعة أخرى ظللتُ واقفا مكاني أتساءل؛ لماذا لم يعودا؟! لماذا؟!

أدرتُ ظهري، وانصرفت بخطوات بطيئة ثقيلة، أمرّ بين تلك المساكن مسكناً مسكنًا. توقفت وأنا أعاود النظر خلفي، إلى حيث ذهب "صالح" و"عبد الحميد"، وسألتُ **"ألن يعودا؟!"**

بدت لي شواهد تلك المساكن كحراس عتاة صارمين، يمنعون من دخل مسكنه أن يخرج منه، إلى الأبد، يمنعونه أن يعود.

كدتُ أصدّقُ أنني لن أراهما ثانية. صرخ عقلي **"لماذا؟!"**

انصرفتُ، والصدى الصامت المهيب تردده جنبات عقلي. الصدى يرسله الحرّاس من خلفي..

**- إنهم لا يعودون.**

سبتمبر 2007م

# فِئرانُ هذا الحيّ!

في الحي التجاري، اِنعطِف من الشارع الكبير إلى شارع "سامي أبو عرب".

حانوتٌ، اثنان، حانوتي الثالثُ على اليسار. على يساري حانوت عدنان الرفّاء، وعلى يميني حانوت السقّاء، وبيني وبين كل منهما ضلفتا خشب مطويتان، لن ترى في أي منهما العمودَ الحديديّ ولا قفله القديم.

لا تعلو الحانوتَ لافتةٌ لأنه ليس في السوق كله من لا يعرفني أو من يجهل أنّ هذا حانوت "العمّ سيّد" الحاوي للأجود والأرخص دائما من الملبوسات الداخلية؛ الرجالية والحريمية والأطفالية، القطنية صيفًا، والصوفية شتاءً.

وكما ترى، فليس للحانوت سواي، وليس لي سوى هذا الحانوت، فيه تاريخي وقصة حياتي، وفيّ سرُّ وجوده وبقائه.

رفوفه الخشبية العريضة الحاملة للصناديق الكرتونية المتخمة بالبضاعة، والجدران الرمادية من خلفها، وحواجز البيع الخشبية العتيقة، الأرضيّة البيضاء المطفيّة، السقف الخشبي المعروق المزيّن باسطوانتي النيون المضيئتين، تعلوه صندرة تخزين البضاعة غير الموسميّة، هذا السلّم الخشبي المتنقّل الأكبر عمراً من أكبر أبنائي... كل هذا - رغم كل العروض المغرية ببيعه أو تركه- أبقيتُ عليه؛ أعطيتُه من عمري ليُبقيني.

هذه رائحة البخور. حتمًا رأيتَ عودَي البخور يعزفان رائحة احتراقهما البهيّة. أَعْلمُ أن عودًا واحدًا يكفي، ولكن لو أمعنتَ قليلا، هناك رائحةٌ نتنةٌ في ركن ما؛ إنها جثة أحد الفئران.

منذ ما يربو على الستين يومًا طلبَتْ السيدة (أم ملاك) ممرّضة الحاج (عبد الحميد) بعضَ أصناف من هذه العلب زيتونية اللون التي على اليمين، لأفتحَ إحداها وأجدَ "شورتًا" قطنيًا تآكلَ معظمُه بطريقة فئرانية، وتبقّع باقيه باللون الأصفر الباهت. ولم أدرِ حينها ماذا أفعل!

بعدها بعشرين يومًا أو يزيد، في تلك الصناديق الصفراء التي تملأ الواجهة، وفي ركنها العلوي الأيمن بالذات، اكتشفتُ - في حضور السيدة "حورية" والكلّ يعرفُ زوجَها من يكون- أكوامًا من بُرَازات الفئران وأبوالهم الجافّة تحتضنها أشلاءُ الفانلات المهترئة بنفس الطريقة. إحراجٌ ما بعده إحراج!

ومع اقتراب ميعاد الجرد السنوي لبضاعة الموسم الصيفي، اكتشفت فسادَ أكثر ما كنت أعتمد عليه منها.

فعلاً، كان لابد أن أهتمّ بالأمر، ولكني لم أفعل لأن عدّتي الحقيقية من البضاعة ترتاحُ في صناديقها في الصندرة العلوية. إنها بضاعة موسم الشتاء. وألقيتُ عليها نظرتي كي يطمئنّ قلبي؛ فوجدتها كحالها، مذ رتبّتها آخر مرة، محفوظةً مصانةً.

ولكن كان لابدّ أن أتعاملَ مع هذا الفأر. هو لا يبدو فأرًا واحدًا، وإنما عدةٌ منهم، وأنا أعرف فئرانَ هذا الحيّ، إن قتلتُ واحدًا لاشكّ سينتقم له الآخرون. هكذا يفعلون.

ولو وضعتُ له سُمًّا، فلا أضمن ما يترتب على ذلك. أنا لم أنسَ حفيدتي الصغيرة التي ماتت بسبب قطعة جُبنٍ مستوردةٍ، دسّ أحدُهم بداخلها السمّ طُعْمًا لفأرٍ، ورماها في ركنٍ، فالتقطت الصغيرةُ الطعمَ قبل الفأرِ وماتت لساعتها.

ولن أنسى أبناء جيراني الثلاثة، سمّموا للفأر ماءً فتنقّلَ وهو في سكراتِ موته بين آنية الغذاء منتقمًا متقيّئًا، فأمسَوا لليلتهم ميّتين.

المصيدة! ومن قال إنني لم أستخدمها؟! ولكنّ الفئران كانت أذكى بكثير من أن تصيدها المصيدة. ومع كل مرةٍ أنصب لهم فيها المصيدة، كان عقابُهم لي على النحوِ الذي ذكرتُ لك.

ولقد فاض الكَيْلُ بي، فوضعتُ لهم سُمًّا، وأصبحتُ، وقد مات أحدُهم خلف أحد أركان الرفوف، ولم يكونوا يموتون سوى خلف أركان الرفوف! ولمّا تبعه ثانٍ وثالثٌ ورابعٌ، فاحت رائحةُ العفن والنتَن من جثثهم التي استحالَ عليّ الوصول إليها. أأهدِمُ الرفوف حتى أصلَ لجثثِ الفئران؟! بل أتحمّل الرائحة، والبخور هنا معي يكفيني.

ومع ذا، كادت بضاعة الصيف أن تبِيدَ، وأيقنتُ أنّ أيّ محاولة ستعود بخسارةٍ جسيمة، لا جدوى إذًا. كلا، لم تكن لتجديني فكرة الاستعانة بالقطط؛ قططُ هذا الحيّ صارت تخشى كلّ شيءٍ، حتى الفئران.

وكان لابدّ أن أفكّر في حيلةٍ جديدة؛ لأتّقِيَنّ شرَّ الفئران بما سأحضره لهم، يأكلونه هنيئًا مريئًا، يستعيضون به عن أكل بضاعتي وسرِّ بقائي، وأستأمن به لنفسي وبضاعتي.

وكلَّ ليلتين كنتُ أُحضِرُ لهم ما تيسّر، وأُغلقُ باب الحانوت من دون عيني حتّى لا أنغّص عليهم أكلَهم. وسَلِمَ لي ما تبقّى من ملبوسات موسم الصيف.

وكنتُ كلّما أسمعوني خربشات أرجلهم وصرير حناجرهم أقولُ في نفسِي **(دعكَ في تجارتك، ودعْهم في ألعابهم؛ فكلنا الآن آمنون).**

وبالأمسِ فقط، صعدتُ الصندرةَ لأحصرَ ما تيسّر من بضاعة موسم الشتاء المنقضي، وأجهّزه لأبدأ به الموسم مبكّرًا - هكذا عودّتُ زبائني-؛ لأجدَ فئرانَ لا أحصيها عددًا؛ صغارًا وكبارًا، يروحون ويجيئون وسطَ أكوامِ فتافيتَ مهترئةٍ لأصوافٍ وكراتين، كانت تمثّل يومًا بضاعةَ الموسم الشتوي.

لن أخفي عليك، اليومَ عندي لم يكن كأيّ يوم.

أي نعم - كعادتي كل يوم- فتحتُ الحانوت باكرًا، وتلوتُ دعائي الصباحي "**يا غنيّ، رزقنا واتّكالنا عليك. عليك صلاح الحال يا ربّ**". ورددتُ السلامَ وتحيّات الصباح على كل مَن ألقى، ورششتُ الماءَ خفيفًا أمامَ الحانوت. إلا أنني اليومَ - واليومَ فقط- وقفتُ على بابِ الحانوتِ أنتظرُكَ.

وها قد أتيتَ.

ماذا سنفعل؟!

مايو 2010م

# ساكِنُو محطة مصر

ليست المرة الأولى التي أضطر فيها إلى فعل هذا.

ربما هذه رابعُ مرة، أو هي الخامسة. والسيناريو تقريبًا لا يختلف. بعدما أنهي سهرتي مع أصدقائي النخبويين قرب الثانية صباحًا بدون أن أحظى بدعوةٍ من أحدهم للمبيت عنده، أجدُ أنّ أفضلَ خيارٍ كي أقضي الساعات المتبقية على ميعاد دوامي الوظيفي في الثامنة، أن أذهب إلى محطة قطار مصر.

لماذا محطّة القطار؟ ثمّة شيءٌ لم أعرفه بعدُ يدفعني لهذا. **شيءٌ** يتجاوز الرغبة في الإحساس بالأنس وسط أناسٍ، أعلم أننا نتشارَك أمورًا كثيرةً أقلّها الهموم والمصريّة. **شيءٌ** يتجاوز الرغبةَ في البقاء مستيقظًا وسط هذه الأجواء من الحركة والضجيج. **شيءٌ** يضاهي الحياة.

هكذا أخوض رحلتي للمرة الرابعة، ربما هي الخامسة، قاطعًا المسافة من شارع الهرم إلى ميدان الجيزة، من أسفل النفق، وأركبُ سيارةً متجهة إلى رمسيس. أصِلُ، أنزلُ، أخترقُ إحدى حواري السبتية، يشدّني منظرُ رجُلٍ يجلس على كرسي القهوة نائمًا، وقد تدلّت نظّارته على أنفه ورأسه على صدره وكرشه على فخذيه، وفنجانُ القهوة بجانبه يتصاعد منه البخار. أكمِلُ متجهًا نحو الأبواب الزجاجية لمحطة القطار. ثمّة دفءٌ تبعثه تلك الإضاءة الصفراء الباهتة التي تملأ بهوَ المحطة وأركانها وأرصفتها.

أُنهي صلاتي في ذلك الركن المنزوي. وكعادتي في كل مرة، وبينما أمشي في ثباتٍ كأنما أعرف وجهتي، أتظاهر بأنني قدمتُ مبكرًا عن ميعاد قطاري، قطاري المحتمل - بهذه الكيفية- يأتي على كل الأرصفة.

عامل النظافة على رصيف واحد يرشّه بالماء، وكل كراسي الانتظار ملآى. حسنًا، ماذا عن رصيفي اثنان وثلاثة؟! آخر مرة جلستُ على رصيف اثنان مستقبِلاً الجالسين على رصيف أربعة. الوجوه على هذا الرصيف المقابل تتغيّر كل مرة.

أتقدّم على رصيف اثنان. كافة الكراسي ملآى. الوجوه هي هي، صرتُ أحفظ أكثرها، وبطبيعة الحال سبق أن حدث تعارفٌ بيني وبين بعضِهم.

هذا الشعر الرمادي الطويل المتجعدّ، لا ريب أنه الأستاذ "خديوي". موظفٌ على المعاش من قويسنا، يعمل في مطعم كشري على الطرف الآخر من السبتية. لم يجد الرجل بعد خروجه على المعاش وسيلةً ليزوّج بناته الثلاث سوى العمل في طهي المكرونة في مطعم الكشري هذا. ولأنه يريد توفير كلّ قرشٍ لأجل بناته، فهو لا يدفعها في سكنٍ يأوي إليه في مواعيد الراحة؛ إنه ببساطة يأوي إلى كراسي محطة القطار.

أواصل خطواتي المتمهّلة، أسمعُ شخيرًا عاليًا، أعرفُ هذا الشخير، أتوقفُ وأطلّ على المتواري خلف ظهر الكرسي. كنت أعرف أنه هو. إنه "حمدي". شابٌ موظّفٌ من المحلّة، يتغيّب عن عمله كموظّف في المحليات بمدينته، ويتكفّل أصدقاؤه بإمضاء الحضور والانصراف نيابة عنه، بينما يعملُ مناوِلاً للطلبات في قهوةٍ شهيرةٍ بميدان رمسيس. لم أستطع أن أفهم سرّ إيواء "حمدي" هو الآخر إلى المحطّة. لم يخبرني الأستاذ "خديوي" عنه أكثر من ذلك.

أتطلّع ببصري، بقيةُ الكراسي ممتلئةٌ بالأجساد الممدّدة في إنهاك. أشعرُ بالخيبة. ثمّة كرسيٌ يجلس عليه كهلٌ مهندَم فاردًا ذراعيه بطولهما على ظهر الكرسي ذات اليمين وذات اليسار. تجاوزته، ثم عدتُ إليه بعد خطوتين (**ممكن أقعد جنب حضرتك لو سمحت؟!**) انتبه وأجاب بأريحية وهو يتزحزح ململمًا ذراعيه: (**آه، آه، اتفضل**).

جلستُ، ومن خلفي شخيرُ أحد الآوين إلى رصيف المحطّة يعلو ويخفُتُ في انتظامٍ مُغيظ. ألم يكن هناك غير هذا الكرسي الذي من خلفه هذا المشخّر العظيم؟! ينبغي ألا أمارس رفاهية التساؤل في هذه الحالات، فجميعُهم يشخّرون.

لاحظني الكهلُ المهندَمُ، فأقبلَ عليّ بوجهِه..

- **معرفش المحطة بيقلبوها لوكاندة وللا إيه؟!**

- **الناس أكيد تعبانة وبتريّح مستنية القطورات بتاعتها.**

- **ماشي، مانا مستني القطر بتاعي أنا كمان. آه على رأيك.**

تململتُ قليلاً:

- **بس مش كلّهم مستنين قطوراتهم. في ناس مستنيّة النهار يطلع، مش أكتر.**

تبادلنا الحديث والاستماع، عن عمله وعملي، عن أحوال البلاد، عن غباء النظام، عن أبنائه الذين شجّعوه على النزول معهم ظهيرة 25 يناير، ولم يرجعوا إلا حينما رجع الناس، عن تشديده على ابنته لتصبح طبيبةً ماهرةً، عن وساطته لابنه بالمال والقضاة لتعيينه وكيلاً للنيابة، عن مشكلته منذ سنوات مع كفيله السعودي الذي أكلَ من حقه آلاف الدولارات، عن صدمته التي تلقّاها من فم وزير الخارجية

شخصيًا، عن معايرة كفيله السعودي له بأن المصريين يقفون في طابورٍ للحصول على الخبز، عن غربة 25 عامًا قضاها في السعودية.

فجأة قطع حديثه ونظر إلى الأجساد المستلقية من حوله على الكراسي يمينًا ويسارًا، وتنهّد ونظر أمامه:

**- أنا اتغرّبت، بس المال في الغربة وطن.**

ثم نظر في عينيّ مومِئًا نحو أولئك النائمين، وربما نحوي أيضًا..

**- الفقر في الوطن غُربة.**

لم ينتزعنا من حديثنا إلا مرأى العامل يرشّ الماء على أول الرصيف، قرب جثةِ صبيٍ نائم على الأرض بلا اكتراث. نادى الكهلُ عليه منزعجًا فألقى الخرطوم أرضًا وأقبل. كنتُ متأذيًا وأنا أرى الصبيَّ يعتدلُ ماسحًا الماء عن وجهِهِ وساقيه، بينما يتقدّم العامل.

**- هوّ دة مش بني آدم يا جدع انت؟!**

**- يا عم ماتشغلش بالك، دة طفل شوارع.**

**- طفل شوارع يعني إيه؟ بني آدم دة وللا مش بني آدم؟! هتخسر إيه يعني لو هزّيته وخلّيته يقوم بدل ما تغرّقه كدة.**

نظر العامل نحوي، تلقّي نظراتي المثبّتةَ في عينيه بامتعاض، ثم التفت نحو الصبي، وذهب نحوه وأشار له بالنهوض. نهض الصبي منكسرًا مترنحًا وانصرف.

الساعة الآن، الرابعة والنصف، النهار أيضًا بدأ في النهوض. يمكنني أن أفعل شيئًا مختلفًا هذه المرة. لن أنتظر المترو الذي لا يشرّف محطّة الشهداء تحت ميدان رمسيس إلا على الساعة السادسة.

صافحتُ الرجلَ واستأذنته، واتجهت نحو أبواب المحطّة من جهة السبتية، وأنا أتفكّر في نفسي: هل سأضطر يومًا أن أمدّد جسدي ليلةً ما كهؤلاء المصريين ساكني محطة القطار؟! منذ ساعتين رأيتُ رجلاً ملتفًا في بطانية نائمًا تحت نفق الجيزة، وبجواره زجاجة مياة فارغة. لحظتها تذكّرت مأساة إخواننا السوريين، ودعوتُ الله ألا يكتبها عليّ ولا على أهلي.

أمام المحطّة، فوجئتُ بأجساد متناثرة على أشباه أرصفة، ممدّدةً ومتكوّمة، الصبي طفل الشوارع متكومٌ ولا زال مبتلاً، رجلٌ يتوسّد - بطريقة مَن اعتاد الأمرَ كلّ ليلةٍ- بطانية ملفوفة برباط قماش، لاريب أن هذه البطانية لا تفارقه. ثالثٌ متمدّدٌ على الرصيف يتوسّد حقيبته الـ"هاند باج" وهو يتكلّم في الهاتف ناعسًا..

**- لا يا حبيبتي أنا في لوكاندة لطيفة كدة قريبة من الموقف. لا ما تقلقيش أنا عامل حسابي على آخر الشهر.**

هذه الأجسادُ تدقّ في حلقي غُصّة غائرة. تنتابني رغبة في البكاء إشفاقًا عليهم. هذه مأساة إخواننا المصريين.

أكملتُ وأنا أحاول غضّ بصري؛ كيف تخطّينا تلك القدرة على الاحتمال إلى القبول والتسليم. نحن المصريين أمةٌ من المساكين.

بوابات المترو لا زالت مغلقة، ودرجات السلّم النازلة نحوها تكتظ بالمنتظرين، النائمين جُلُوسًا ومفرودين.

نحو الجهة الأخرى - حيث السيارات أمام مسجد الفتح- اتجهتُ. المساحات الخضراء في الميدان تتوسّدها وجوهٌ أخرى كثيرة، ما بين أشعثَ أغبر، ومُهندَمٍ مستسلمٍ، وعابرِ سبيلٍ لا يعلم له مستقَر.

أواصل خطواتي المتثاقلة. أتذكّر جمال عبد الناصر وذكرى أقسى هزيمةٍ تسبّب بها للأمة تقترب. أتذكّر صديقي عبد الله عبد الجواد، وجهه يذكّرني بعبد الناصر، أتذكّر حركة أحرار. يدوي في مخيلتي هتافهم: (**الحدود تراب، الحدود تراب**).

أنظرُ إلى الأجساد المتناثرة هنا وهناك، أتذكّر صورةَ الرئيس في عيون الناس، أتخيل هضبة المقطّم، ومصر التي صارت محطّة وأرصفة، ويتردّد في مخيّلتي صدىً مجهول: (**الكرامة تراب، الكرامة تراب**).

صباح 3 يونيو 2013م

# عمّ هلال

التاسعة إلا خمس دقائق.

أنظر إلى الحافلة التي نفذت بإطاراتها وزجاجها وطلائها الخارجي من وسط الزحام البعيد، نعم إنها هي، وهذا ميعادها.

تقترب الحافلة أكثر. هل سأراك اليوم يا عم هلال؟! أم سيمرّ اليوم كما مرّ إخوانه الثمانية عشر ولا أراك؟!

**(إنت بس لو حبيت توصلّي، تنزل البلد، وقدام الجامع الكبير اسأل فين عم هلال هتلاقي ميت مين يدلّك).**

أَذكُرُ تلك الابتسامة الودود والعين الشفوق، بعد ما أبديتُ لك شكري على دَفعك ثمن التذكرة الذي نسيتُ نقودَها وأنت تخبرني أين أجدكَ، أصدّقُ أن هناك بلدًا وأصدّق أنّ هناك جامعًا كبيرًا، ولكني لا أصدق أن هناك مائةً قد يدلني واحدٌ منهم على مكانك.

أتمنى لو أراك اليومَ، فأركب الحافلة لأجلك ذهابًا وإيابًا كعادتي، عسى كلمةً منك تزيح عني بعضًا مما أنا فيه.

**(تعالوا تعالوا.. اتفضلوا.. أهلا وسهلا.. الصالون وللا الأنتريه؟!).** هكذا كنتَ تستقبل الركّابَ، وقد اعتاد من يعرفك من الموظفين والمدرّسين والطلاب أنّك تقسّم مقاعد حافلة النقل العام إلى درجة أولى، وثانية، وأنتريه، وصالون.. ليتجهوا

جميعا مبتسمين نحو مؤخرة الطرقة المزدحمة أساسًا، وينتظرون سماعَ دعائك **(ربنا يديمها زحمة يا رب)**.

ويسألك عابرو السبيل عن ثمن التذكرة حتى المحطة الفلانية، فتجيبَهم بذلك المرح الجادّ وكأنك تكرمهم لوجه الله (**بـ 75 ساغ. زي ما بعنا والله. إسألي الحاجة لسه واخدة تذكرتين أهيه. هي ذمة واحدة معندناش ذمتّين**). وتظهر عندئذ الابتسامات على وجوه الصباح المكفهرّة، والتي لا تلبث أن تنقلب إلى ضحكاتٍ صافيةٍ حينما تنظر لأسفل خلسة منبّها (**فلوس مين دي ولاد؟!**) وبمجرد أن تهمّ هي بالنظر لأسفل تتدارك الأمر (**الله! لالا.. دة مفيش حاجة**).

تقترب الحافلة أكثر . الآن أرى عم إبراهيم السائق، ولكنك لا تبدو يا عم هلال من خلف الزجاج العاكس.

(**حدّ طلع ونسي يدفع! حد طلع وناوى يزوّغ!**)

تعبر من وسط الأجساد الساخطة التي تعلوها الوجوه الباسمة..

(**اللي مزوّغ هيروح من ربنا فين؟! يوم القيامة الحكومة هتاخد حقها منه بالعدل والميزان. مش معاك فلوس، هياخدوا من حسناتك لغاية ما تخلص، وبعدين يحطوا عليك من سيئات الحكومة. وسيئات الحكومة كتير، كتير قوي!**)

تتوقف الحافلة أمامي بنُواحٍ لافحٍ، وبكاءٍ معدنيّ..

(**بالسلامة يا حاج.. وشّك ع القبلة وانت نازل.**) هكذا كنتَ تخاطبُ طاعني السنّ من راكبي حافلتك.

نفثةُ تفريغ الهواء تؤذِنُ بفتح باب الحافلة الأمامي. أتلصّص من بين أجساد النازلين باحثا عن وجهك، عن أذنك تحتضن فوقها قلمك الجاف، عن منديلك الأبيض يعلو ياقة بذلتك الكحلية. أتذكّر ريثما تتمخّض الحافلة أجساد راكبيها..

(**القبلة الناحية الهين؟!**) فاجأتَني حينها وأنت تردّ عليّ: (**زي مانت نازل كدة**).

وكانت آخر ابتسامة ضاحكة تبادلتها أعيننا الذابلة.

(**عم هلال مجاش النهاردة يا عم إبراهيم؟!**)

بنفس النظرة الحزينة التي يحاول مداراتها يجيبني: (**أجازة النهاردة**).

ويطلق الباب نفثتَه لينغلق على من بداخل الحافلة.

تغادرني الحافلة منتزعة مني حنيناً ما، للمرة التاسعة عشر، أرجو ألا تنتزعه مني غدًا.

إنها تعرف قبلتها، ولكني لم أعرف مِن بَعدِكَ يا عم هلال قبلتي.

مارس 2010م

# سيّدةُ البيت

على أول الطابور النسائي الطويل أمام ماكينة الصرف البنكية، كانت تنهي استلام راتبها الشهري لتخرج مكملةً وصلة التذمّر والتضجّر من أصواتهن وكلامهن، متحاشيةً أن تمسّها إحداهن ولو بدون قصد.

واصَلَت ابتعادَها السريع تاركة بعض من في الطابور يرمقنها، طولُ قامتها وبشاشة وجهها وهدوءه، لا ريب أنها تبذل مجهوداً مضاعفا لإظهار غضبها.

بعد نصف ساعة من الابتعاد المتواصل نظرت خلفها مرة أو مرتين؛ توقفت الأنظار عن ملاحقتها.

تخلع قناع البشاشة والهدوء كاشفةً ملامحَ رسمتها سبعةٌ وثلاثون عامًا من الضعف والانكسار. تلقي بجسدها على أقرب رصيفٍ غير مبالية بملابسها، لا مانع من التظاهر بالإعياء والإنهاك، ثم اختلاس النظرات إلى كل رجلٍ أو شبه رجل تلتقطه عيناها. تجلس وتنهض، تبحثُ بعينيها في لهفةٍ هنا وهناك عن لا شيءٍ، تنتظر لا أحد، تتحدّث في هاتفها التالف العَطِب في خطورةٍ وقلق، تُوقِف شابًا تسأله عن مكانٍ تحفظ الطريق إليه عن ظهر قلب، وتُوقِف ثانيا تسأله إن كان أصلاً يعرف مكانًا بهذا الاسم، وثالثًا يعتذر لها عن كل شيءٍ.

تنظر في ساعتها مقرّرةً أنها لن تنتظرَ أكثر من ذلك. تذهب إلى محالّ وسط المدينة، تراجع رابطات العنق، القمصان والبذلات الأنيقة في فاتريناتها. تدخل محلاً مختلفا للعطور الرجالية كأنها ولأول مرة تراه. تسأل كل من فيه عن كل

شيءٍ يتعلّق بتاريخ العطور الذي صارت تعرف أكثره. زجاجة العطر هذه فعلاً باهظة الثمن....

تنكسر منها دون قصدٍ، فتُصرّ في إباءٍ من لا يخشى الفقر على دفع نصف مرتّبها ثمنًا لها. تخرج إلى الشوارع شاردةً تجرجر خلفها ظلال التوتّر والاضطراب.

تتحاشى رجالاً تتمنى لو أوقفها أحدهم. تصطدم بأحدِهم فتبتسم معتذرةً ليعبرَها متضايقًا في عجلة واضحة، يتباطؤ سيرُها، تهتز من الحرج.

تُوقِفُ سيارة تاكسي، تفاوض السائق العَجول ثم تصعد لترتقي جواره. لن يستمع إليها لو حادثته لأن خطيبته الثرثارة على هاتفه النقال أعجل منه.

أمام أحد بيوت الجمال الشهيرة نزلت، وفي الداخل حادثت السكرتيرة حديثًا طويلاً خافتًا، اصطحبتها بعدها في رفقٍ إلى حجرةٍ بعينها، حيث سيدة البيت تمارس عملها، جميلة طويلة القامة بشوشة هادئة، لا ريب أنها لا تبذل مجهودًا لتبدو كذلك.

ساعتان كانتا كافيتين لإنهاء ما أتت من أجله، تفحّصت حقيبتها بشكل روتينيّ، تأكّدت أنها لا تفقد شيئًا، ولكنها لا زالت تفتقد أشياءً.

في الخارج سارت وإحساسٌ زائرٌ غامرٌ بالقوة والسطوة يؤانسُها، اصطدمت بخمسةِ أكتافٍ على الأقل، واعتذرت لكل كتفٍ بانشغال ذهنها. يعبرونها، يتباطئون يتأمّلون، ثم يواصلون.

تواصل سيرَها المتأنّي، الأملُ يقاسمُ القوّةَ إحساسها، يأخذها إلى الكوبري الشهير المطلّ على مياه النيل السوداء. الحلمُ يشاركُ الأملَ في الهدوء والسكينة والسّكَن، ولكن من أين؟ يداهمها الإحساسُ بالافتقاد من جديد.

نتوجّه إلى المول الكبير المطلّ على النيل. تتجوّل فيه كله تقريبًا، تنزل إلى الجراج، تتهادى قليلا في إرهاقٍ وشرودٍ بين السيارات، توقفها أنفاسها المختنقة من الرغبة في البكاء، تستند بيدها على سيارةٍ ذات زجاجٍ أسود عاكس، تزفر أنفاسها الدامعة.

ينزاح زجاج باب السيارة لأسفل كاشفًا وجه سيدة بيت الجمال الشهير، وقد احمرّت عيناها وأنفها من البكاء المتوقّف لتوّه فيما يبدو.

انزعجت الأولى وأخفت وجهها بسرعة ريثما تمسح دموعها، ثم عادت لتنظر إليها..

**- تعرفين جوّ القاهرة!**

أجابتها الأخرى..

**- وأعرف ما يفعله بأمثالنا.**

تبادلتا الابتسامات الحزينة، قبل أن تدعوها الأخرى إلى توصيلها حيث ترغب..

**- ما رأيكِ أن نأكلَ شيئًا أولاً؟!**

يونيو 2011م

# سَـلمَى

تستشرف السماءُ سطحَ العالم بوجهٍ صبوحٍ، لترسل من ثغرها ابتسامة دفءٍ تحتضن الزرع والأرض، والساقية والبيت، والمئذنة البعيدة وعريشة البط. وشيئًا فشيئًا تخفت تلك الابتسامة ليحمرّ وجه السماء خجلاً، قبل أن تغادر بلا وعدٍ بالقدوم من جديد لترى ما تفعله العمة "سعاد" بـ"سلمى" طوال النهار .

هكذا يدور اليوم دورته فى حياة "سلمى" مذ كانت آخر مرة شاركتها السماءُ البكاءَ.

**(أيتها السماء لِم لَمَ تعودى صديقتى؟! هل انقطع تعاطفك معي بانقضاء الشتاء؟! لِم لَمَ تعودى تشاركيننى البكاء؟!)**

وعلى مدخل أذنها دوّى انفجارٌ باسمها. توقفت سلمى عن التفكير والكتابة، ليبدأ القفص الخشبي من تحتها وأوراق الكتابة من فوق رجليها بالارتعاش، بينما تقبض يدها على سلاحها الخشبي المدبّب بالرصاص المذيل بالممحاة.

اِستدارت والرجفة تلطم قلبها لمرأى العمة سعاد وقد أتمّت اقترابها. كمّاشةٌ فكّاها سبابة العمة سعاد وإبهامها، تعتصر باطن عضدها هذه المرة لا ثديها، فيرفعها الألم المتلون بالأخضر والأزرق على أطراف أصابعها.

**- مش بانادى عليكى! ما بترديش ليه يا بنت الشقيانة؟!**

وكعادتها تنتزع العمة سعاد السلاح الخشبي من القبضة الصغيرة المرتجفة، تكسره نصفين وتلقيهما ليستلقى كل نصفٍ كالأنصاف السابقين، منتظراً من سَلمَى دمعة تأبين.

**- ياما جاب الغراب لأمه يا حيلة أمك! ناوليني الكبريت يا بت الوابور طفا.**

**- الكبريت خلصان يا عمّة.**

**- خلصان! إجرى هاتى كبريت وكيس ملح من الشيخ عمر.**

لم يبدُ جفاء يد العمة وهى تدفعها في كتفها النحيل أقل جفاءً من كلماتها.

**- إنجرّي يا بت اخلصي. المغرب هيدّن ومش هنلحق!**

خَلُصَت الفتاةُ من حضرة العمة سعاد مهرولةً. البيتُ في طرف القرية مما يلي الرّيّاح، والشيخ عمر في الطرف الآخر، والطريق يمرّ بالساقية الصدِئةِ وشجرات التوت العبِقةِ، ثم بيوت ضيقة وشوارع أضيق، وصدرُ سلمى أضيق من كل ذلك.

**(تشدّين اللثامَ وتونينَ الرحيل؟! لن يفلح لثام السحب الأبيض في حجب نجلك أيتها السماء. إن كنتِ صديقتى حقاً فانتظريني. لا تغادري قبل أن أعود بالملح والكبريت.)**

الآن تفلحُ البيوتُ فيما لم تفلح فيه السُحُب، وجدرانها تحصُرُ شوارع القرية الخالية فتجعلها كأمعاء ساكنةٍ متقلّصةٍ من جوعِ ما قبل الإفطار، تُسْلِمُ سَلمَى من مَعيٍ إلى عطفة مَعيٍ ثانٍ إلى ثالثٍ.

تناثرت حولها فرقعاتٌ طفوليةٌ مألوفةٌ تحمل اسمها جعلت هرولتها ركضًا فَجْرِيًا فسعياً سريعاً فتوقفاً مفاجئاً، وصاحبُ الفرقعات يأتيها جرياً من خلفها بفضولٍ في وجهه، ونصفِ رغيفٍ ملفوفٍ في قبضته.

**- سلمى. إنتي غبتي النهاردة ليه؟!**

**- كنت بانضّف عريشة البط!**

تعلمُ ويعلمُ، كما يعلمُ كل زملائها فى الصف الثالث الابتدائى، أنّ غيابها لم يكن له يوماً علاقةً بعريشة البط.

**- عندك قلم رصاص يا سيد؟**

**- آه فى الدار. اتين! تاكلي قشطة؟!**

**- تؤ. صايمة. يا فاطر!**

**- طب أنا هاعمل الواجب بقا وانتى لأا!.**

تركها سيّد فنظرت لوجه السماء الممتقع، وعادت تستشرف طريقها، وخفق قلبُها لجلبابٍ أبيضَ شابٍ قادمٍ من فوّهة الشارع. حَتْمٌ عليها أن تدركه قبل أن يصل عطفته التالية. هرولَت نحوه فأدركا العطفةَ معاً.

**- عم عمر!**

**- خير يا سلمى؟!**

**- كنت عايزه ملح وكبريت.**

**- الساعة دي! ده المغرب خلاص!**

ليس كلَّ مرة لابد أن يرى دموعها.

**- عمتك بردو؟! طب تعالى بسرعة.**

خطواته السريعة تفرقع جلبابه مما بين ساقيه، وخطواتها الصغيرة تجتهد ألا تتأخر عنه.

بابُ المحل مغلق. سيَدْلِفُهُ الشيخ عمر من بابه الآخر داخل المنزل، وتنتظره.

تسمعُ نقرَ ملعقةٍ على طرف إناءٍ معدني، صوتٌ يلي الرائحة الشهية يُؤذِنُ بتمامِ الطهي.

ذهب سيّد إلى أمه، وسيعود الشيخ عمر بعد الصلاة إلى أمه، وستبقى هي لا تعرف لها أمًا. وإن كانت تعرف أصدقاء، فكلّما اتخذت من البطّ صديقةً ذبحتها العمة سعاد؛ لذا لم يتبقّ لها الآن سوى صديقتها السماء.

**- الملح والكبريت يا سلمى. ها.. صايمة النهاردة؟!**

**- بقالي تلات سنين باصوم. اتعودت.**

**- اتعوّدتي على الصيام. كويس.**

**- لا. على الجوع.**

تُناوله النقود وقد خلّفا المحل فى آخر الشارع خلفهما. يتناولها وهو يتأملها لثوانٍ مشفقًا؛ سنواتُها الثمانية تنوءُ بكل هذا الشقاء.

ومع عطفه عليها، انعطَفَتْ معه يميناً قبل أن تنتبه لابتعاد الطريق.

**- خُشّي انتى من هنا يا سلمى عشان مش تتأخري.. ومش تخلي عمتكي تبعتكي في وقت زي ده تاني.**

وأسلَمَتْ سلمى نفسَها من جديدٍ لأمعاء القرية الخاوية ومن معىٍ خاوٍ إلى ثانٍ، وفى الثالث كان يمشي شيحة. أحياناً يُهيّؤ إليها وهو يمشى كأنه ينزل دَرَجاً بجانبه الأيمن.

**- إيه يا تلات ترباع!**

الصوت الساخر لجسدٍ بغيضٍ ووجهٍ أكثر بغضا يتّكئ على رصيفٍ أسمنتيٍ عالٍ ينفث دخان السجائر، وبجواره إمّعتان يبتسمان.

تتوقف سلمى عن جريها اللاهث، ويتوقف "شيحة" عن مشيه النازل. أيها المسكين شيحة ماذا يفعل مثلك أمام سطوة الاشرار؟!

**- يعني رجلك دي وللا مساعد شيفورليه!**

كيف ينظر شخص ضعيف مثل شيحة، هذه النظرة المخيفة؟!

**- الله يسامحك!**

**- ومالك بتبص كدة إيه يا واحدة إلا ربع! مش عاجبك؟! لازم تتوضّب زي كل مرة؟!**

وما كان للإمّعتين أن يضحكا! ولا للبغيض أن يعتدل ويخطو ثلاثاً ليصفع شيحة في استقواء. وما كان لسلمى أن ترى يد شيحة تقبض على المعدن المدبّبِ اللامع

تشق طريقها عبر أمعاء البغيض من أقصى البطن إلى أقصاه، ثم ترتفع لتسكن نفقًا ذبحيًا فى قلب الرقبة.

ثبّتت الرجفةُ سلمى لحظات، واستبطأتها صديقتها السماء والعمة سعاد.

ونبتت من الجدران رءوسٌ تنظر في فضولٍ، لم تلبث أن انسحبت لتتمخضها الأبوابُ في صخبٍ صادمٍ سريعٍ، وأُتخِم الشارع بالأجساد والأصوات.

تقبضُ سلمى يدَها على كيس الملح وعلبة الكبريت. لا يمكنها الرجوع. تبحث عن ثغرة للعبور. لا ريب أن العمة سعاد تقف أمام البيت متلمّظة.

تحاول سلمى العبور يمينًا، أجسادٌ تتدافع.

لابد أن زوج العمّة الآن خرج ليسألها عن حال الطعام لتجيبه بجَلَفٍ: (**لسه المغرب ما اترفعش!**) سيسألها بفضوله المعتاد عن سبب وقوفها هكذا وستجيبه: (**مستنية المحروسة بنت أخويا بتجيب كبريت!**)

تحاول سلمى العبور يسارًا، أجسادٌ تنهض لتتساقط.

حتمًا تركها ليصلي المغرب في المسجد ريثما تنهي الطعام، وحتمًا لا تفكر العمة الآن إلا في إحدى توعّداتها المخيفة: (**إمّا خليتكي تعضي البلاط من اللي هاعمله فيكي.. ما أبقاش سعاد!**)

انطلق صراخٌ فتدافعت أجسادٌ ليخلو جانبٌ. تنفذ منه سلمي لينطبق من ورائها من جديد.

لفَظَتْ نفسها من الشارع المتخم إلى آخر، وخرجت للزراعات فإذا السماءُ معرِضةً عنها، وصوت القارئ تضخّه المئذنة البعيدة.. "**صدق الله العظيم**".

**(كلا. ليس الآن! ليتكِ يا سماءُ حفظتِ صداقتي. لقد أحببتكِ أكثر من شرارات الليل التي تحرق سطح العالم وتخنقني).**

ثوانٍ وانطلق صوت النذير.. "**مدفع الافطـــــار.. اضرب**".

تنفجر قذيفة المدفع في عقلها لتتناثر أشلاءُ لطماتِ ولكماتِ وركلاتِ وكّاشاتِ وعذاباتِ العمّة سعاد.

وتحت سطح العالم الجاثم انطلقت وحدها،تركض وتركض. ركضاتها الضيقة تسابق دقات قلبها، ودموعها وأنفاسها تحاول اللحاق بها، لن تعود من طريق الساقية، فمن حين الإفطار يتجمّع عندها بعضُ الأشرار، أولاد الذئاب كما يصفهم زوج العمّة، وأولاد الكلب كما تنعتهم العمّة سعاد.

لَكَم تتمنى أن تتفادى استقبال العمّة سعاد!

لماذا تتردّد قدماها؟! ممرّات الطين الضيقة الآن أكثر أمانًا. مساحات اللون الأخضر تتحول للأسود، لماذا يهجم الليل الآن سريعا؟!

تباطأت خطواتها لمّا رأت مصابيح الأمل المزدوجةِ من خلف الرّيّاح تشرّق وتغرّب، وترسلُ صيحات تنبيها التي تنسحب معها سريعًا قبل أن يبتلعها الظلام. مصباحٌ مزدوجٌ وحيدٌ فقط هو الذي توقّف لها، وومض مرتين، ثم تابع طريقه المحتوم نحو الظلام. لماذا لا ينتظر لأجلها شيء؟!

ركضت وسط ممرّات العالم الأسود المموّه الغارق في دموعها؛ هكذا تأتي البيت من ظهره علّها تتفادى استقبال العمة.

انقضّت على قدميها بِركةٌ صغيرةٌ اختلط فيها الطين بكثير من الماء، فتعثّرت مفاجَأةً وسقطت بالملح والكبريت رعبًا، واستقبل الطينُ غرسها من الملح والكبريت راضيًا.قبضت على العلبة والكيس واعتدلت هاربة نحو ظهر البيت، وبكاؤها لاهثٌ متقطعٌ.

تبرزُ من خلف أحد الأركان بحذر، ظَهْرُ العمّة المتربصة لها عند الركن المقابل.

**- الكبريت يا عمّة.**

اختزلت العمة سعاد المفاجأة في نصف التفاتتها، وهي ترسل قذيفتها الخشبية الغليظة نحو سلمى صارخةً.. **"كنتي فين دة كله يا بنت الشرموطة؟!"**

وكوّمت الصغيرةُ جسدَها فوق ساقها اليمنى محاولةً تفادي القذيفة الخشبية. حاولَت، ومع ذا فجّرت القذيفةُ من ساقها نيرانًا حمراء، وفي دماغها اندلعت نيرانٌ جافةٌ، ومن حلقها تفجّرت قذيفة ألم تكوّمت على إثرها ساكنةً بجوار الملح والكبريت.

فحيحُ الوابورِ أفاقها بعد قليل، شدَّ الألمُ المشتعلُ عينيها نحو ساقها اليمنى، حاولت تحريكها فتزايد الألم. ستكون عرجاءَ تمامًا كـ"شيحة"؟! سيتهكّمُ عليها البُغَضَاءُ والأنذالُ والإمّعاتُ، وتستذلُّها العمة سعاد أكثر وأكثر.

اليومَ ساقُها اليمنى، ربما كانت عينيها أو حتى قلبها، وغدًا ربما ساقها اليسرى. والعمةُ سعاد تعدّ الطعام كأن لم يكن شيئًا. وقدمُ سلمى اليمنى تطالب بشيءٍ من حقوقها.

توقّفت دموعُها وجمدت نظراتها؛ المسكينُ شيحةُ ما عادَ مسكينًا.

ووجدت نفسها واقفةً، ومن على الأرض جانبها التقتطته لتقبض بيدها عليه؛ سلاحها المدبّب بالمعدن المذيّل بالمقبض، ومِن أمامها ظهرُ العمّة سعاد يدعوها.

لبّت الدعوةَ مرة واثنتين وثلاثة، وتتابعت تلبياتَها لا تغادرُ من الظَّهرِ شبرًا؛ حتى استقرّت العمّة سعاد بين علبة الكبريت وكيس الملح والوابور. وكلٌّ مفتوحٌ.

تركَ السلاحُ القبضةَ الصغيرةَ المرتخيةَ ليستلقي نصفُه الأحمرُ معانقًا نصفَه الأسودَ مهنّئًا، وتراجعت سلمى خطوةً. نظرت لأعلى وقد تناثر الشرر الساكن على سطح العالم يهنئ بعضُه بعضًا.

لم تدرِ ماذا تفعل! ساقاها الآن ترتعشان، بل تضطربان، بل تجريان كأنما تنحدرُ على دَرَجٍ بجانبها الأيمن ركضًا، تعبران بها مسافات العشب ومنثورات الشوك وبُسُطَ الطين. تصطكّان فتتعثّران، تدهسُ إحداهُما ضفدعًا رخوًا من وسط عائلته، وتسبقها الأخرى – المسكينة!- نحو مياه الرّيّاح.

توقّفَ تطايرُ الرذاذ فتوقفت عائلةُ الضفادع الفَزِعَة، ونظراتُها الجاحظةُ ترقُبُ فقّاعاتٍ قِلقةٍ تنبعُ من تحت الماء لتتصاعدَ متفجّرةً فور اصطدامها بسطح الهواء، وصورةً بعضَ الشرارات تتراقصُ طربًا فوق سطح الماء.

وما هو إلا قليلٌ حتى عادَ سطحُ الماء يعكسَ بوَدَاعةٍ صورةَ شرارات أَلِقَةٍ قَلِقَةٍ تملأُ سطحَ العالم وقد سَكَنَتْ. وبدأ نقيقُ الضفادعِ على مَن رحلَ من الأحياءِ.

يونيو 2010م

# رُبع جنيه!

صباحٌ جديدٌ من تلك الصباحات التي تتكاسل فيها الديكة عن الصياح، منشغلةً بالاستدفاء بالتزاحم في أحد الأركان هنا أو هناك. تراني لو كنتُ ديكًا، هل كنتُ سأضطر للذهاب في مثل هذا الجو إلى المدرسة كلّ صباح؟!

توقظني أمي بصوتها المتعَب الناعس الملحّ "**يابني قوم إخلص.. هتتأخرع المدرسة**".

أتقلّب، أتمطّى، لا تنزع الديكة ريشها، وهأنذا أنزع عني غطائي الدافئ.

القميص السماوي والبنطال الأزرق، وحذاء ابن عمي الأكبر الذي صار منذ بدء الدراسة حذائي، وحقيبة ابنة الصيدلي الصغرى تمتطي ظهري تدفئُه.

أفتح الباب، يغمرني الضوء البارد. أبدأ رحلتي نحو المدرسة ككلّ يوم. هل سألحق؟! أم سيكون لزامًا أن أمدّ يدي لتلقّي العقاب؟!

أبدأ جريي. تنصب قدماي سباقًا خاصًا بينهما. تضربني الحقيبة مع كل خطوة على ظهري تحثني على الإسراع بهما أكثر. علام تخشى الحقيبة؟!

تذرف عيناي دمعًا دافئًا، وأنفي مخاطًا باردًا، يتورّم وجهي ويداي، يعبرني التلاميذ راكبين التروسيكلات، أغبطهم؛ أن كان كل واحد منهم يملك أجرة توصيلة التروسيكل للمدرسة؛ ربع جنيه.

زراعات الذرة الناضجة عن يميني ليست أطول أنفاسًا مني، الترعة الجافة عن يساري

ليست أعمق حزنًا منّي، القطار القادم من وراء الترعة، حتمًا لن يكون أبطأ منّي. نفس القطار الذي يهزمني كل يوم. اعتدت أن أقيم بيني وبينه السباق ذاته، نتلاشى من حولى الزراعات والترعة والوجوه اللامبالية بي من وراء جُدُر التروسيكلات، ولا يبقى سوايَ والقطار.

يلحقني، فيوازيني، فيسبقني، فيهزمني، فيطمئنني أو يعلمني بما أنا مقبل عليه من العقاب. إن سبقني قبل سور الوحدة الصحيّة فإني معاقَبٌ لا محالة، وإن سبقني بعدها أو قرب الكوبري فأنا في أمان.

أمام الوحدة الصحيّة عبرتني آخر عجلاته اللامبالية بي. لم تتكلّف التروسيكلات عنائي، فهل عساه يتكلّفه القطار؟!

تتخطاني التروسيكلات العائدة بعد إفراغ حمولتها من الوجوه اللامبالية.

خلّفتُ الكوبري من ورائي، سورُ المدرسة بدا لي طويلا هذه المرّة. بوابة المدرسة الموارِبة من خلفها عم "طُلبة" الفرّاش، ممسكًا بعود البوص الإفرنجيّ الأصفر، وقد أوكلوا إليه عقاب المتأخرين عن الطابور الصباحي.

يُوقِفُ المتأخرين واحدًا تلو الآخر، من كان معه ربع جنيه فليفدِ نفسه، ومن ليس معه أو لا يريد الدفع فليبسط يده يتلقّى العقاب.

وكان لابد أن أمدّ يدي المتورمة كي أتلقّى العقاب، أنّي لا أملكُ ربع جنيه.

أكتوبر 2010

# البـــــازلاّء

حسنٌ جدًا، هلا فسّرت لي لم كل هذا الضحك؟!

فمنذ دخلتُ عليك المطبخ وخرجتُ، وحتى جلوسنا على الإفطار، بل وحتى هذه اللحظة ولا زلت تضحك!

قال لي "**لا شئ !**" واستمر في ضحكه.

ولّدت إجابته بداخلي غيظًا، وزادتني توترًا.

هكذا إذاً!

**- لماذا يضحك هذا المحترم هكذا يا عبد العزيز؟!**

نظر لي عبد العزيز لحظةً في صمت، ثم انقلب على ظهره من الضحك، وتناوبا فاصلاً متناغمًا مُغيظًا من الضحك المتواصل بجوار صينية الطعام.

**- مم تضحكان.. حتمًا هناك شيءٌ ما.**

أجاب كل منهما من بين الضحكات المنبعثة من خلف كُليتيه: (**لا شيء**)؛ بألِفٍ ممدودةٍ متقطعةٍ بين الأنفاس الضاحكة، ووجدتني أبتسم غصباً، عدوى الضحك هذه لا فكاك منها.

حسنًا، هذا يكفي.

**- بالله عليكما ماذا يضحككما؟!**

اعتدل عبد العزيز بتراخٍ، ولا زالت الضحكات تطارد فلولَ أنفاسه..

**- هل أكلتَ من البازلاء؟!**

قلت: (**نعم. أكلتها. كلنا أكلنا منها**).

عاد مرتميا بصرخات ضاحكة كما كان، وقدماه تشاركانه الضحك.

التفتُ إلى الأول، والضحكات الدامعة تستخرج منه ما بقي من أنفاس..

**- وماذا في البازلاء؟!**

اعتدل عبد العزيز متمالكًا نفسه.. ( **كانت حلوة؟!**)

**- حلوة؟! ألم تر أنّا أتينا عليها حتى قاع الإناء!**

هنّأني وهو يقاوم ضحكة عاصفة تحاول غزو وجهه وأنفاسه.. (**بالهنا والشفا**). ولم يلبث أن انهار تحت وطأة الضحكات العاصفة.

لا أظن الغيظ قد بلغ بي يومًا مثل ما سيبلغ بي في هذه اللحظات.

أمسكت ياقة قميص الأول، وعدلت جسده المرتخي المهتز تحت وطأة الضحكات، وكادت مسكتي هذه تخنقه..

**- من ساعة أن دخلت عليك المطبخ وأنت تقلب في إناء البازلاء فوق النار.. وأنت تضحك.. ما الأمر؟!**

هدأ ضحكه قليلاً، وهو يقول مهدئا: (**خلاص.. خلاص**).

تراجعتُ وأنا أتحاشى الجلوس فوق الصينية وما تحمله آنية الطعام، ومسح دمعه ولازال وجهه محمرّا منتفخا من الضحك.

- **أتذكر ساعة أن دخلت عليّ المطبخ وأنا أقلب البازلاء؟!**

- **نعم.. أذكر.**

أكمل محاولا التماسك..

- **بينما أقلب البازلاء على النار.. فوجئت بـ(برصٍ) كبير هكذا.. بمثل هذا الحجم.. يسقط في الإناء المغلي.. وفاجأتني أنت بدخولك بينما كنت أبحث عنه وسط الإناء بالملعقة لأخرجه.. وكان لا ينبغي أن أريك إياه.. لذا تظاهرت بمواصلة التقليب.. ولا زلت أضحك لتلك المفارقة!".**

قلت له مبهوتًا: (**والبُرص.. أين ذهب؟!**)

قال ببساطة: (**بعد أن خرجتَ من المطبخ أخرجته**).

تدخل عبد العزيز ممسكًا بذراعي مستشهدًا إياي..

- **بالله عليك، ألم تكن البازلاء حلوة؟!**

واستلقى على ظهره ضاحكًا في هستيرية صاخبة، وتضامن معه الأول.

هل أصرخ وأقول "مجانين!" أم أنّ الغيظ سيقضي عليّ إن لم أصرخ!

لحظة! (**لقد كانت المياه مقطوعة!**)

اعتدل عبد العزيز مدهوشا لثوانٍ لملحوظتي تلك.

واصلت: (**من أين أتيتم بالماء؟!**)

أجاب وهو يستعد للاستلقاء على ظهره: (**من الماء المخزّن في السيفون**).

إن كان هناك كلام يمكن قوله في مثل هذه اللحظة، فلا أدري كيف يكون!

تراجعتُ مسندًا ظهري إلى الحائط؛ أي بلاء هذا الذي وقعتُ فيه بالسكن مع هؤلاء الطلاب؟!

# مَـلائكُ الحَجَر

ما السماوات الأربع الأوَلُ إلا مجازَه المعتاد في كل أمرٍ يؤمر به، حتي يستشرف سطح الكون المكوّر متّجها نحو الأرض.

واحدٌ من آلافٍ لا يدري عددها ولا يهمّه معرفته مادام لم يؤمر. ولكنه يدري أنّ كل واحد من هذه الآلاف - مثله تماما- ينطلق محمّلا بمهامّ لا تُحصى، وجميعها بلا أدنى شك أو خطأ تنفّذ على الأوجه الأكمل دائما. إنهم جُندُ الربّ.

وعلى الأرض صاروا، لا يراهم من أهلها إلا من رأى إخوانًا لهم على وشك اصطحابه معهم.

وتتابعت المهامّ، تعبره الشظايا الواهنة المتطايرة، والطلقات البطيئة التائهة. بجناحاته المضمومة خفقًا يحجب لفحَ النيران، يفتحها تقذف أمواج اللفح الساخن في وجه الأعداء..

**(إخوانُكَ في جندية الربّ أتوا)**

سمع القاذفَ بالحجر يهتف لأخيه الرامي من خلفه، هذا مفتاح مهمته الأخرى. انتظر الحجر الطائر ببطءٍ ليحطّم كل قوانين الفيزياء.

قَدَرُ الحجرِ أن يتخضّب بالدمِ دون أشلاء. مسارُ الحجر يرتفع وسرعته تزيد، يحمله ذو الأجنحة، يصنع له مسارًا مختلفًا، يعطيه سرعةً من سرعته، يرشده إلى هدفه

المرسوم، يوصّله إلى جبهة قائد الأعداء، يمهّد له طريقاً بشقّ الخوذة وتضخيم صوت الارتطام.

**(القائد أصيب؛ بل لعله مات. تراجعوا. إنسحاب).** هتف مساعد قائد الأعداء.

إخوانٌ مجنّحون أتوا لاصطحاب القائد.

الآن انتهت مهمّة ساحة المسجد..

المهمة التالية خلف جدارٍ من الأشجار..

وانطلق ملاكُ الحجر.

أبريل 2010م

# الينبـوع

ساعةٌ مرت بعد منتصف الليل،

يومان راحا وقد خبا الأمل،

ثلاث ليالٍ ولّت لم يطلع فيها القمر،

أربعة أسابيع وقد انقطعت عنا أخبارك؛

**(يا ترى انت فين دلوقتي يا سيد؟!)**

* * *

ساعةٌ مرت بعد منتصف الليل.

يقف ويجلس بين حين وحين، يلقي نظرةً ويلملم أخرى، يريح قدميه من الجلوس تارةً ومن الوقوف تارةً أخرى.

لا زالت المعدّية رابضةً عند الشاطئ الآخر للريّاح، لا يحرّكها شئيءٌ من بعد العاشرة مساءً.

هل وعدتّني يا سيدُ بشيءٍ؟!

ربما أنت لم تعدني قطّ بالقدوم، إذًا فلماذا أنتظرك؟!

* * *

يومان راحا وقد خبا الأمل.

نَفَض جلبابه بفرقعتين متتاليتين، فكّ الشالَ الثقيل من على عنقه، ألقى نظرةً طويلةً نحو المعدّية، ثم لملمها وهو يستديرُ مُحكِمًا لفّ الشال من جديد. الآن يتذكر.

أقولُ لكَ يا سيدُ لماذا أنتظرك! لستُ أنتظركَ وحدَكَ.

يومَ أنجبتَ "أمل" ولم تحضرها إلينا، وعدتَنا إن أنجبتَ أخرى فستأتينا، وتوًّا أنجبتَ أخرى.

مُذ علمتُ وأنا أنتظر قدومَكَ بهما.

ومن قلبهِ إلى خطواته المبعثَرة تسرّبَ الدّهسُ والسّحْقُ.

* * *

ثلاث ليالٍ ولّت لم يطلع فيها القمر.

في مثلِ هذا الظلام نشأنا.

عند ولادة الثانية، قلتَ لنا إنّ السحبَ الثائرة تجمّعت من مجامع أطراف الخضراء، لتصبّ سيولها الثائرة في شتّى الأنحاء.

لم يحملك السيلُ الثائرُ إلينا، ولم يأتِنا منه شيءٌ، والعطشُ إلى الماء الثائر يكاد يُشقّقُ فؤادي.

* * *

أربعةُ أسابيع وقد انقطعت عنا أخبارك.

الآن أغوصُ في الظلام عائدًا أبحثُ عن بيتي.

ذكرى النيرانِ المتوهّجة في جسد أخيك تنيرُ طريقي. أراد الموتَ كريمًا ولم ينتظر حتى يغسّلوه بالماء، فأكرمَ نفسَه بالغُسلِ بالنيران.

من مُقلَتيّ يكادُ يتفجّرُ ينبوعُ الوَهَن.

أين البيت؟!

* * *

**"يا ترى انت فين دلوقتي يا سيد يا ابني؟!"..**

وأين الحفيدة "أمل"؟!

وأين الوليدةُ "ياسمين"؟!

يمشي ويمشي؛

أين البيت ؟!

24 يناير 2011 م

# ثَمَرَة

**- ههنا توجدُ شجرة.**

بهذا نطقت الرأس المستقلّة المستلقية على سطح الظلام، كأنما تتسمّعُ خبرًا يصّعّد في العَدَم. وفي أقصى الخلَفِ من الرأسِ ذراعٌ تتلوّى، وساقٌ تتمطّى، وأصابعُ كفٍ مرتخيةٌ تنبثقُ ببطءٍ من فوقِها.

* * *

**- متى تُثمرُ الشجرة؟**

تثاءبت الرأسُ في استغراق، ومن خلفها الذراع تستكشف الساق الناعسة، تتحسسها في حذر. ومن فوقٍ، ذراعٌ تنبثقُ متدلّيةً.

* * *

**- بدأت تثمِر الشجرة.**

ابتسمت الرأسُ متداعبة، والذراعُ تسقطُ فوقها تلطمها بكفّها..

وعناقٌ حميميٌ تُنجِزه ساقٌ تُوارِي ذراعًا تحتها..

والظلامُ يبتسم!

* * *

**- أين هي الشجرة؟**

تدور العينانِ في فضول، وساقٌ منبثقةٌ من أعلى اليسار تبدأ سقوطها، لترتطم بسطح الظلام..

تجرُّ الأصابع ذراعها، تزحفُ نحو الساق الوافدة في حنينٍ لاهف..

والرأس تتساءلُ في شغفٍ..

**- هل اكتملنا ؟!**

* * *

**- نُريدُ جسدًا ورقبة.**

تؤكدُ الرأسُ، تدور عيناها.. تومئ بتصبّر..

**- فقط جَسَدٌ.**

تتقطّب باستضآلٍ..

**- وفقط رقبة.**

تُلحُّ الأطرافُ ترغبُ في الاكتمال.

تُجيبُ الرأسُ بنفادِ حيلة..

**- ههنا كانت شجرةٌ، وإلا فِمن أينَ جئنا؟!**

2004م

# الشمعة الأخيرة

على كم شمعةٍ قضيتُ حتى الآن؟! لا أذكر. بل ربما أذكر.

بمجموعٍ لا يقلّ في الأرجح عن سنوات عمري السبعة والثلاثين، ولا يزيد عن مائة ضعفٍ لهذا الرقم.

أنصب لكل واحدةٍ مشهدًا وأقيمُ لها مراسمَ خاصةٍ، وأجتهد في التنويع على الرغم من أنهن في كل مرة يرتجفن بالطريقة ذاتها، ويبدين الاعتذاراتِ ذاتها، ويبكين بالطريقة ذاتها، ويفترشن أرضية المشهد ليعترفن - بكل ألم- بفشلهنّ في منحي لحظة أمل.

حسنٌ، يبدو أنّ الشموع لن تجديني نفعًا.

كم عدد ما تبقّى منهن؟! واحدة، اثنتان، عشرة، ثلاثون، خمسون... لن تبلغن ثلاثة أضعاف سنيّ عمري إذن.

الآن أقيمكنّ جميعًا بين يديّ. قفي أنتِ هكذا. وأنتِ وراءها. تعالَى أيتها اللعوب ههنا. وأنتِ اثبتي جانبها. أيتها التي إلى يسارها؛ ألا بدّ أن أثبّتكِ أكثر من مرة؟!

نعم، هكذا ينتظم المشهد. أفرغتُ الحجرةَ الواسعةَ خصيصا لَكُنّ وزيّنتُها بالظلام.

بالمناسبة، هذه آخر تنويعاتي، وهذا حفلكنّ الختاميّ في حياتي.

نفسُ الصفقةِ - ولآخر مرة- أعقدها مع جنسكن؛ أمنحكنّ الحياة لتنمحنني الأمل.

واحدة تلو الأخرى، أنثئ لَكُنّ رؤوسًا تتمايل - لا يهمّ سُكرًا أو نعاسًا أو ذهولاً.

اسبحن واطفونَ على سطح الظلام كما تشأن. هأنذا أنتظر.

... ... ... ...

بالضبط؛ بماذا ستَفُقنَ أخواتكنّ السابقات؟! لا شيء.

ها أنتنّ؛ واحدةٌ تلو الأخرى، تمايلٌ فارتجافٌ فاعتذاراتٌ فبُكاءٌ فافتراشٌ أرضيٌ مهينٌ. كلّكنّ هكذا. منتظرٌ أنا حتى تنتهوا.

ألم تبقّ منكنّ سوى هذه الصامدة؟! تقفُ في عناد، بلا ارتجاف، بلا بكاء! أأنتِ المختارةُ من بين كلّ جنسك لتمنحيني الأمل؟! اخسئي لن تعدِي قدركِ، أنتِ مجرد شمعة، تأخذُ، لا تملكُ العطاء.

واقفةٌ أنتِ لا زلتِ!

أطَؤ إليكِ أشلاءَ كلّ شمعةٍ مهينة. أتقتربين مني أم يهيّؤ إليّ؟!

تتحدّينني!

سأنتظر نهايتكِ بكل برود. وهأنذا أتكئ مرتقبًا.

لماذا مِلتي مع اتّكاءتي؟!

لماذا لا يظهر انعكاسي في المرآة؟!

# الصرخة الأخيرة

آااااه

آاااااااااه

آاااااااااااااااااهـ

صرخات متتابعة فجّرتها أربعة أفئدة في ألمٍ ونشوةٍ وبكاءٍ، مستنفذةً كل الطاقة التي تملكها حناجرهم، تكاد تمزق طبلات الآذان، عابرةً إلى القلوب كما انطلقت من القلوب.

والدبيب يتصاعد مقتربا من كل واحدٍ منهم، يعلو مذكّرًا إياهم بأنه لا زال هناك، يحوم حولهم، حركةٌ بطيئةٌ ودبيبٌ متسارعٌ.

ومن بين صرخاتهم يميزون صوتًا يستحثهم على الصراخ أكثر وأكثر، أعلى وأعلى.

ولم تلبث أن اتّحدت الحناجرُ الأربعُ في صرخةٍ واحدةٍ، عميقة طويلة معذّبة، وفجأة ساد السكون كل شيءٍ، وانبثق ضوءُ هادئٌ غامرٌ، وتدلّت الرؤوس الأربع بأعينٍ دامعةٍ داهشةٍ ممتنّةٍ، وشهقاتٍ خافتةٍ، ونشيج نشوة مضطربة يحرك أجسادهم المقيّدةً في اهتزازات خفيفة.

وقف قبالتهم والظفر يبتسم في عينيه..

- **ماذا رأيتم؟!**

ومرّت ثوانٍ طويلةٌ لم يرغب فيها أيُّهم في التحرّر من رجفة نشوته، قبل أن يأتوا بجوابٍ حملته حروفٌ خشنة احتكّت بجدران حناجرهم المحترقة من الصراخ..

**- رأيتُ كياناً..**

**- رأيتُ صخرةً..**

**- رأيتُ هلاماً..**

**- وأنا أيضًا..**

أوقف تداخلَ إجاباتهم بإشارةٍ من يده..

**- كان لابد لكلٍ منكم أن يرى شيئاً؛ تجسيداً للخوف الكامن بداخل كلّ بشرٍ. الخوفُ مكوّنٌ أساسيٌ للنفس البشرية، يتوجّه كيفما يتوجّه، ولكنه دائماً موجود. بالترتيب، ماذا رأيتم؟!**

أجاب المُقيّد الأول..

**- رأيتُني أجري ومن خلفي صخرةٌ تطاردني، كلّما دَبّت في الأرض كلّما ازداد حجمها، حتى صارت ضخمةً هائلة.**

**- وأنت؟!**

**- رأيتُ كأنّ هُلاماً بلا ملامح يطاردني فوق سطح القمر..**

**- ولماذا القمر ؟!**

**- لا أدري. ولكنّه كان يتضخّم صارخاً بنفس إيقاع الدبيب!**

- وأنت يا صلاح ؟!

- كانت هناك غابةٌ مظلمةٌ، وكان هناك هذا الكيان يجري خلفي بين الأشجار.. يقذفني بأحجارٍ وأشياء.

- آدم ؟!

- رأيتُ هُلامًا بعشرات الرؤوس ومئات الأيدي وآلاف الأقدام، يحجب من ضخامته القمرَ من خلفي والسماءَ من فوقي، يغمر ظلُّه آلافَ الخطوات اللاهثة أمامي.

تكوّنت ابتسامةٌ على فم الواقف، تعمّد أن يجعلها غامضةً..

- الخوف قيدٌ جاثمٌ، والصرخةُ الأخيرة حطّمت جزءه الأكبر، وخفّفت قليلاً من جثومه. الصرخة هي وسيلة تفريغ في تمام موضعها الآن. في مراتٍ أخرى لا تمثّل الصرخة أكثر من وسيلة هروبٍ آيسة. دموعُ الرضا التي تذرفُها أعينُكم هي أبلغُ دليلٍ يطمئنني على نجاح تدريب اليوم.

ومضى يفكّك قيود كلِّ واحدٍ منهم في رفق.

* * *

أربعةُ أيامٍ مرّت منذ خرجت هذه الصرخة في تدريب إعداد الممثل، و"آدم" يشعر باتّزانٍ لم يره من نفسه في حياته من قبل.

وها هو ذا، لم يوبّخ أباه، ولم يُعنّف أمّه، ولم يصرخ في وجه أختِه. لم يفكّر في عادته السّرّية اليوميّة، ولم تراوده الخيالات الشبقة عن نفسه. لم تفارق السكينةُ روحَه،

ولم يغادر الرضا عينيه. لم يَعُد ينتظرُ متوتّرًا رنين الجوّال، ولم يَعُد يحتاج إلى المشاكسات. لم يبحث عن الأصدقاءِ من أجلِ سيجارةٍ بُنِّيَّةٍ أو خضراء. ينامُ هادئًا كما الطفلُ، ويصحو بجسدٍ نشِطٍ مسترخٍ على نفس الوضعية التي نام عليها.

في أحلامه يرى صفاء السماء، وليونة الماء، وتبسّم الأزهار، وتراقُصَ الأشجار، ونعومة الجبال، ونصاعَةَ الألوان. أو لا يرى أيّ شيءٍ سوى العدم بكل نقاء.

تراوده أفكارٌ مطمئنةٌ عن الوجود والخلق، والربِّ والوعدِ الحقِّ، تبدو الأمورُ أكثر بساطةً ووضوحًا.

يشعرُ بالأمان، يتساءل من أين كان يأتيه الشعور بالحرمان؟!

فجأةً اكتشف أنه يحبُّ النظام، عاد إلى نفسه حبُّ الجمال. هذه الرسوم المُقبِضة التي على الحائط لم تَعُد تناسب جوَّ غرفته المضيئة. الموسيقى الناعمة صارت تروق له أكثر من سابقتها الصاخبة.

عادَت شهيّته تنفتح للقراءة التي هجرها، صارَ يفهمُ ما يَقرأ، يتفاعل مع ما يُعرَض.

يغمره شعورٌ بالطفو والتحليق.

تمنّى "آدم" لو عرف السرّ الذي أدخله جَنّته هذه!

* * *

عشرة أيّامٍ مرّت منذ الصرخة الأخيرة.

استيقظ "آدم" من نومٍ غير مريحٍ على الإطلاق، هذه الليلة أكثر سوءًا من سابقتها، يتمطّى في عناء.

بحث عن جوّاله، لماذا لم يتّصل أحد؟! فكّر قليلاً فيمن قد يتصل به الآن، ثم أزاح الجوّال جانبًا بجوار كتابٍ لم يُكمِل قراءة مقدّمته منذ أمس.

نهضَ وتناول لفافة إحدى اللوحات المُقبضة التي نزعها من على حائطه، أحسّ أنها تعبّر عنه بشكلٍ ما.

يتثاءب ثم يتمطّى، انتصابُ الصباح يستدعي خيالاتٍ شَبِقةً تراوده عن نفسه والوسادة.

ملابسُه المتّسخة لا زالت في مكانها منذ أمس؛ لابد أن يلقّن أخته درسًا عنيفًا كما كان يفعل، وإن اعترضت أمُّه كعادتها سيعطيها نصيبها من التعنيف، وإن جاءَ الأبُ وعَلّق، سيعاني الجميع من الآن فصاعدًا من موسيقاه الصاخبة. ولماذا ينتظر حتى يحدث كلُّ هذا؟! ها هي الموسيقى الصاخبة.

الافتقاد والانقباض يتوغّلان داخله، يشعر بهما جيّدًا.

يتذّكر التدريب، الظلام والهروب، الصراخ والدبيب،.....

يحنّ إلى الصراخ!

ما الذي يحدث له؟!

* * *

يريد أن يصرخ، لابد أن يصرخ، سيُجَنُّ لو لم يصرُخ.

انطلق خارجًا باحثًا عن سبيلٍ يُخرج به صرختَه. ورشةُ إعداد الممثّل انقضَت، والمسرحُ أُغلِق، لا مزيدَ من التدريبات! لا مزيدَ من الصراخ.

أين يذهب كي يصرخ؟!

البحر! يكتظ شاطِئُه بأكوامٍ من البشرِ هذا الوقت من العام.

قطعة الأرض الفضاء! حنجرته القويّة، مع الصرخة التي يريدُها، ستخلعُ قلوبَ المناطق المحيطة.

بجوار القطار! أطفال القطار - أيّ قطار- سيتّخذونه سخريًّا.

في النفق! النفق الذي لا يخلو دقيقةً واحدةً؟!

أما من مكانٍ يحتضن صرخته؟!

في حلقه تندقّ غُصَّةٌ كالوتد، وفي عينيه تتجمّع دمعةٌ كالبحر، وفي عموده الفقري تتلوّى القشعريرة، والأنين المُزمِجِرُ يزلزلُ صدرَه، ويُشعلُ سطح وجهه.. صرختُه هذه المرّة أكبر منه، وهو يجاهد كي يكبحها.

الآن يتمنى أن يُطلقَها، حتى وإن كانت الأخيرة.

يوليو 2011م

# فهرس المحتويات

نقطتان وقوس ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 2
سيأتي بهم الحنين ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 4
الرّابض في الأعماق ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ....... ... 7
لا يبدو الأمر مسلياً أبدًا ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 21
ذكرى الأجساد الباردة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 27
ليل هلوسيّات ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 28
إلهٌ يعترف به الزعيم ضمنياً ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 34
صوتٌ، مجرّد صوت ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 37
قَلبُ مَن؟ ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 42
طَلّةُ شهرزَادي الأخيرة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 44
إنهم لا يعودون ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 47
فئران هذا الحيّ ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 50
ساكنو محطة مصر ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 54
عم هلال ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 60
سيدة البيت ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 63
سَلمَى ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 66
ربع جنيه ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 75
البازلاء ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 77

ملائكُ الحَجَر ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 81
الينبوع ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 83
ثَمَرة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 86
الشمعة الأخيرة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 88
الصرخة الأخيرة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... 90

رقم الإيداع: 2823 / 2014

"إياك يا عمّي أن يكون هذا ما تقصده، فتكون مرحومًا يرسل سلاما إلى مرحوم، ليبيت المرسال ثالثَ المرحومَيْن"!

(أغا.. نعم أغا)

"أرحّب بهم. يدخلون من جديد. تطبع كلٌّ منهم على خدّيّ لسعةً حانية. أجلسهم إلى منضدة السفرة، وأفسح لهم الكراسي ليجلسوا عليها. حوارات طويلة دارت لم تتجاوز الإيماءات، تفاهمنا على كل شئ بلا كلمات.. لا ريب أنهم مشكورون"!

(لا يبدو الأمر مسليًا أبدًا)

"ولكن كان لابد أن أتعامل مع هذا القادر. هو لا يبدو قادرًا واحدًا، وإنما عدةً منهم، وأنا أعرف فتوان هذا الحيّ، إن قتلتُ واحدًا لاشكّ سينتقم له الآخرون. هكذا يفعلون"!

(فتوان هذا الحيّ)

"اللي مزوّغ هيروح من ربنا فين؟! يوم القيامة الحكومة هتاخد حقها منه بالعدل والميزان. مش معاك فلوس، هياخدوا من حسناتك لغاية ما تخلص، وبعدين يحطوا عليك من سيئات الحكومة. وسيئات الحكومة كتير، كتير قوي"!

(عمّ هلال)

---

محمد السيّد أبو ريّان: قاصّ وروائي ومؤلّف مسرحي وسيناريست مصري، من مواليد محافظة الشرقية، وتخرّج في كلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر عام 2009م. عمل باحثًا - رئيسيًا أو بالتعاون- في مشروعات بحثية لمراكز بحثية عربية، ومتفرّغ حاليًا للكتابة الإبداعية.